كازيوه صالح

خطيبي الطيني

ترجمها عن الكردية،
جمعة الجباري

منشورات الجمل
قصص

كازيوه صالح

خطيبي الطيني

قصص قصيرة

منشورات الجمل

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تحزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

©منشورات الجمل

جميع الحقوق محفوظة

منشورات الجمل

ص.ب: 5438/113 – بيروت – لبنان

تلفون وفاكس: 00961 1 353304

e-mail: alkamel.verlag@gmail.com

www.al-kamel.de

تابعونا على

@منشورات الجمل

منشورات الجمل

منشورات الجمل

* الجمل التي تحتها خط، مستنبطة من أسطورة هندية.

قصص تويترية

١

خمسمئة صفحة من الكلمات المتكررة في حقيبتي أحنت كتفي اليسرى، أريد أن أسمعه صوتي، وأقول: يا سيدي الكاتب، أنا نتاج زمن التويتر، أنت تبعث لي بكلمة واحدة عبر التويتر، وأنا أخلق منها قصة بمئة وأربعين شخصية.

٢

يناديني الكوفي من المطعم: «تعالي واشربي آخر أقداحي، هل تريدين تركي داخل كأسي؛ ليودعني المسح للمنية؟».

شَرِبتُ آخر الأقداح الستة، جرف الماء آخر قطرة متبقية على الكأس وحفظها من المنية.. أنا؟ لم أكن لأشم رائحة الكوفي، ولم أكن أسمع صراخه، فقد كنت تاركًا المكان نهائيًا.

٣

رفع السبت صوته عليَّ وأسمع صوته لخلايا دماغي. وأومأ الأحد برأسه لكلامه وقال: «ربما لا يفهم أننا خلقنا للبساتين وسواحل البحار، وليس أتربة المكتبات».

٤

كانت ماهيتاب وهي تُخرج الرسائل، تتحدث لجارتها عن عظمة ما قامت به: «ادخرت عشرين ألف دولار خلال عامين لسد مصاريف أختي، إلا أن زوجي قال إنها كلفت أكثر من أربعين ألفًا وإنه ذهب لزيارتها عدة مرات على نفقته الخاصة».

تفتح رسالةً، جاء فيها: «اعذريني يا أختاه، أنا الآن حاملٌ من زوجكِ، ونودُّ الاحتفال قريبًا، ثم نقفلُ مسافرين إليكِ، أعلم أنكِ أيضًا كنت تتمنين أن يكون لكِ طفل، لذا تستطيعين البقاء في البيت ولا تتركينه وتعتنين بطفلنا».

٥

على صدري، لم تسحل الحرارة روح مدفأة في أحشائي، تضع رأسها بين ذراعي وتخبئ عينيها من أصوات المنادين. أي دين يستطيع القول إنه

رباني وينزِّلُ اللعنة على الأبكم والضعيف ومخلص مثل هذا؟ كلما احتضنتها أكثر، حدَّت اللعنات وأشعة الحقد من الأعين النارية أكثر فأكثر، ولكن، لا أنا أريد أن أرمق هذه الأعين ولا هو يريد أن ينبح ضدها.

٦

كان الإعلان لرجل ميسور قد وضع في مزايدة علنية، وعندما انطفأت مصابيح الإعلانات، انفتحت الأفواه واجمةً، رجلٌ في سوق القوادين في زاوية مظلمة، يحتال على المتزوجات من أجل خيانات زوجية.

أغسطس ٢٠١١

شجرة تفاح جدي

عند استيقاظي في الصباح، أول عمل أقوم به، أقف أمام نافذتي وأنظر إلى شجرة التفاح في بيت جدي، كي أرى هل ما زالت واقفة، وهل ما زالت عشًا لآلاف العصافير. شباك غرفتي هو الشيء الوحيد في هذا الحي ارتفاعه أعلى من قامة شجرة التفاح. كلاهما عزيز على قلبي خلال اللحظات الهادئة والمليئة بالهيجانات. فقط من خلال عيني هذا الشباك بادلت يوتوبيا المكان النظرات مع روحي. لا أحب النظر حتى إلى السماء من منفذ آخر غير هذا الشباك. لو هبت يوتوبيا الطبيعة من أي مكان، فستعود في النهاية إلى شجرة التفاح.

هذه الشجرة كانت البداية والنهاية لكل مشكلات وأفراح حياتي. قبل أن يتوفى جدي، وزع كل ممتلكاته على أبنائه وبناته وأعطاني أيضًا هذه الشجرة. لقد كنت الوحيدة من بين أحفاده الأحد عشر يمنح شيئًا، طبعًا برضى جدي. كان عمري فقط عشرة أعوام حين أعطاني شجرة التفاح. رفع أبناء أعمامي وأبناء خالاتي المراهقين والبالغين أصوات تنديداتهم إلى السماء الأعلى من تلك الشجرة، أوشك أعمامي وخالاتي أن يحولوا غرفة جدي للضيوف إلى ساحة حرب المغوليين. كان كل واحد منهم يعلي لعناته وشتائمه بطرق مختلفة. كانوا يظنون أن أباهم قد شاخ ونال منه الخرف، فقد عقله ولا يقدر على التمييز بين صالحه وطالحه. وقف الستة على مبعدة من أبي وأمي، وتجمعوا فيما بينهم، وبعد دقيقة من التهامس خولوا عمي الأكبر ممثلًا لهم ليتحدث نيابة عنهم جميعًا. فجاء وجلس بالقرب من جدي وبدأ يقرأ له شجرة العائلة وجميع المعارك والتضحيات العائلية التي قدمت في سبيل شجرة التفاح هذه، كل النكبات وقذف الأحجار والتعشيش وتخريب الأعشاش فوق تلك الشجرة، كل تلك السنين التي لم تطرح نتاجًا رغم التعب والاهتمام بها، والأوقات القصيرة التي ارتاحوا تحت ظلها ونتاجها. وذكَّرَ جدي أيضًا أن قراره غير عادل. فحاولوا إفهامه أنه حتى لو كان مصرًا على إعطائها لأحد أحفاده فأولادهم أولى، لأنَّ والدي كان أصغرهم وأنا أيضًا كنت أصغر من أولادهم.

فغضب جدي على أبنائه وقال لهم: «أنا أعرف مدى الألم الذي في أعماق هذه الشجرة وأعلم جيدًا أي من أحفادي يستطيع مداواة تلك الآلام وأيهم سيسرد تاريخها كما هو». فبصق على الأرض، أعتقد أنها كانت إشارة على انزعاجه من تصرف أبنائه، ثم استطرد في كلامه قائلًا: «لا تتصوروا أنني قد خرفت ولا أعلم شيئًا، كل واحد منكم قد ظهر بالصورة

التي كنت قد رسمتها له في صغره».

ولكي يهدأ الوضع، قال أبي وقد ضاق نَفَسه كما لو كان قد ضُرب بشدة على صدره ولولا الضرورة فليس له أي هوس في الكلام: «أبي العزيز، كل ما عندي هو طفلان، وهذه الشجرة هي شؤم وجالبة المصائب، أرجو أن لا يسجل باسم أولادي، وأي من أشقائي وشقيقاتي يرغبون فيها فمبارك عليه». إلا أن جدي أصر على كلامه وقال: «وأنا أسجلها باسم ابنتك هذه، لأنني أريد أن تصبح ملكًا لشخص يستطيع مواجهة الحياة».

منذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا، أقابل القمر وأحضن إطار الشباك وأضع رأسي على حافته البيضاء غير المتغيرة، آملةً من خلال الأوراق المتساقطة أن أسهر على شجرة التفاح. إنَّ شعر شجرة التفاح وشعري يؤولان عامًا بعد عام للتساقط والبهت. طقطقة ظهرينا تشبه حركة سنجاب جائع في أحفور شجرة هرمة تعبة بعد فصل تساقط الزهور. أجلس يوميًا قبالتها مثل جذوة متوقدة، وهي تواجهني تارة وأخرى نحو الشمس، طرف منها يانع والطرف الآخر محترق، طرف منها عارٍ والطرف الآخر مكسو، توصل حياتها اليومية بالأشهر. وإلى الآن لا أنا أكلت من ثمرها، ولا هي ارتاحت من جراء ثمارها ولا القمر ركز بنوره على حياتها هي، وآلامي أنا.

لم تكن آلامي هي فقط بسبب تقاذف الأحجار من قبل أطفال المحلة، وغزل الصوف من قبل عجائز المحلة تحت ظلال شجرة التفاح، ولف الخرق في غصون وفروع الشجرة من قبل النساء اللاتي كنَّ يعتقدنَ أن التفاح المقدس بمقدوره أن يجعلهنَّ حبالى. وكان عليَّ أن أفك في اليوم التالي آلاف العقد والخرق وأحررَ غصون الشجرة؛ بل كان عليّ أن أعرف كيفية حماية شجرة التفاح من تهديدات الأقارب والأعمام والخالات وأبناء الأعمام والخالات الذين كانوا يهددونني بالانتقام منذ اليوم الذي قرر فيه جدي ذلك، كانوا يكرهونني وشجرة التفاح. عشرات المرات حين كان النعاس يخونني ويسيطر على إحساسي باليقظة؛ وحين كنت أنهض وأستعيد الوعي؛ كان قد سكب النفط تحتها لكي تجف، ومرة حكى لي أحد الجيران أنه على غفلة مني قاموا بحقن التفاحات بالسم واحدة تلو الأخرى. لهذا، وبجهود المخلصين الذين كانوا ينظرون إلى شجرة التفاح كثروة قومية، قمنا باقتطاف جميع محصولها لتلك السنة ودفناه في مكان بعيد لكي لا يأكل منه أحد ويموت بسببه.

وقع تسميم التفاحات بعد هجوم القوات الداخلية لاستيلاء إحداها على الأخرى. قامت هذه القوات بتجربة كل إمكانياتها العسكرية والقتالية تحت تلك الشجرة. لذا، لم تكن أغصانها تحتاج إليّ كي أفك عقد خرق نساء

المحلة منها، لأنها كانت تغطى في كل يوم بلون إحدى القوى حتى باتت بلا لون. في أحد الأيام قال لي أقربائي: «بعد كل هذه التجارب الكثيرة في رعاية شجرتك، هل عرفت الآن أن الدفاع عنها يحتاج إلى قوة، إذا كنت ترضين أن تصبحي أحد أعضاء مجلس أقاربك وعشيرتك وتطعم أعضاء المجلس من ثمرة التفاح بين الحين والآخر، فإننا سندافع عنها بكل قوتنا».

إثر رفض طلبهم، أصبح السم هدية لتفاحات جدي الحبيبة. بعد ذلك، كانت كل قوة تأتي على حدة وتجدد عدة عهود وتشعل الأضواء الملونة وتقول كل واحدة منها: «أنا القوة الحقيقية لحمايتك وحماية شجرة التفاح، ولو أصبحتم جزءًا منا فسيكون من واجبنا حمايتكم، وغير ذلك فذنبك على جنبك، فإننا لا نستطيع حمايتكم حتى من رجالنا».

لماذا نحتاج إلى حماية ونحن منعزلون، على ماذا؟ من كان مهددًا بحياته بسبب شجرة تفاح، لماذا يريد كل واحد أن يربط عنوة تاريخه بهذه الشجرة، لربما تلك هي شجرة التفاح المقدسة وأنا لا أعلم؟ كل واحد في هذه المعمورة حكاواتي، كل واحد يريد أن يصبح صاحب حكاية وتنسب حكاياته إلى شجرة التفاح، فالعديد من الحكايات الملفقة وضعت في جعب الكذب. وحين تكثر حكاياتهم الملفقة، يعودون إلى القتال من جديد والسوبر حكاية، فيصبح كل واحد منهم ندًا للآخر ويقول إنني أول شخص لديه حكاية مع شجرة التفاح هذه. كلا. كلا، فحكايتي أكبر وموثوقة أكثر.

أنا أعلم منذ زمن، أن الذي يثير جنون مملكة الحكاواتيين، أن امرأة تملك شجرة التفاح وتسمح لامرأة أخرى بأن تكتب حكاياتها هي على الشجرة. لذا، ومنذ فترة دأبت فتاة يافعة على الإمساك بطول شجرتي التفاح بمخالب قلمها وتعلق شيئًا فشيئًا حكاية شجرة تفاح وقصصها هي على طول قدها. أنا الآن لا أسهر مثل السابق، وشجرتي قد أينعت وطالت فروعها وارتفعت أكثر من أن يلحقها بصري الضعيف، وهي الآن مقبلة على الشمس بشكل دائم وتضحك، وأنا مقبلة على أمل أنه سيكون هناك أحد يستطيع مجابهة الحياة ويداري شجرة التفاح، وأنا على طرف شباكي الكبير لغرفتي المليئة بالكتب والأتربة، قبالة التفاح والغصون الحبلى بالحياة أنام قليلًا.

كندا، ٢٠١٢

خطيبي الطيني أو الغرفة رقم ٥٠٨

بدأت المشكلات منذ اللحظة التي قررت فيها أن أمشي برجلي ولا ألبس بعد الآن جلباب أمي، لا تلمني، أعرف أنه من الصعب أن تمشي في منطقة ما برجل واحدة، منذ القدم والأمهات يبقين على أرديتهن نصف عمر ولا يدعنها تتمزق لكي تكفي لفترة عزوبية بناتهن، إلا أن جلباب أمي كان كبيرًا علي، كبيرًا جدًا، فكان كُماه الطويلان يربطان يدي مثل لفافة الطفولة، وطوله الكبير يجعل خطوتي الواحدة مئة خطوة، لم يعد لديَّ رِجلا الطفولة الصغيرتان، تلك الرِجلان اللتان كانتا من القصر بحيث تتطلب مني نصف يوم كي أصل بهما إلى آخر زقاقنا الطويل، كي ألعب بالتراب مع سروة، وكانت عينا طفولتي ضعيفتي النظر بحيث كنت أرى ذلك الزقاق طويلًا جدًا، لدرجة كنت أظن أنه أطول طريق في الدنيا. والآن يحتاج زقاق طفولتي إلى دقيقة واحدة لأقطعه ويعيد إليَّ بقية الدقائق الأخرى لأرى بها بقية الأزقة المجهولة التي لم أرها من قبل. تلك الأزقة التي طرف منها على مرمى بصري وطرفها الآخر ربما لم يصل إليها أحد حتى الآن. كم كان أبي ينزعج في ذلك الحين من خطواتي القصيرة والبطيئة تلك إذ كان يجرني وراءه، إلا أنه الآن يتعجب عشر مرات من تلك الخطوات البطيئة، يذكرني في كل لحظة: يا لرشاقة وجمال ابنتي، عش في الكبر مع الخطوات البطيئة والقصيرة لأيام الطفولة. إلا أنني لم أعد أحب أن أعيش مع ذلك الدلع الأبوي، لأن ذلك «الجمال» كان يذكرني بجمال جارتنا «سة بري» التي كانت ما تزال تلعب بالتراب مع صديقاتها اللاتي في سنها، كنت حينها في السابعة من العمر، وكانت هي في الحادية عشرة. كانت تعيش مع جدتها منذ أن توفي أبواها في حادث سيارة، وكما كانت أمي تروي لأبي، فإن خال سة بري يضغط يوميًا على جدتها بأنَّ: «البنت أصبحت يافعة وهي جميلة، لنضع الحبل في عنقها، بعد أن تشيبين أكثر فإنك لن تستطيعي السيطرة على الفتاة وستفضحنا».

- أماه ما هو الحياء؟

- الحياء هو أن لا تخرجي عن طوع أملكِ وأن تنفذي ما أقوله لكِ.

كنت أكره جميع أنواع الحبال، حبل غسيلنا، الحبل الذي ربط به الماعز، الحبل الذي كان يرفع نبتة اللبلاب إلى سطح بيتنا، حبل المرجحة الذي ربط بالشجرة الكبيرة في محلتنا، الحبال المربعة التي كانت قد جرت في قطعة الأرض بجانبنا لبناء بيت، كنت أكره هذه الكلمة كثيرًا؛ كانت تنخر في داخلي عشر مرات أكثر حين كنت أسمعها يوميًا من نساء المحلة، من

أمي، من وجهاء المنطقة، وحتى من بضعة الأفلام الكوردية الهزيلة التي كنت أشاهدها في التلفاز، كانت كلمة الحبل مكروهة عندي لدرجة أنني لم أكن ألعب بالحبل، فقط كنت ألعب لعبة العرائس وألعب بالتراب، حتى أنني لم أكن أقلد أمي في لعبة العرائس، بل كنت أقلد أساتذتي، وكيف أقلد شخصًا لا أحب أن ألبس جلبابه. وكيف لا، وقد كنت في الكبر أكره ذلك الحياء أن أفكر بعقل شخص آخر. كنت أحب قطع جميع الأزقة المحيطة بنا، لم أكن أحبذ السجن في زقاق واحد، كان موضوع السفر طاغيًا على نصف تفكيري، كنت أحس أنني إنسانة رحّالة، الترحال إلى أين؟ لا أدري ربما إلى مجهول، للبحث عن الأشياء المجهولة، الأشياء التي كنت أظن أنها ستوصلني لجواب الأسئلة، الأسئلة التي كنت قد وصلت إلى عمر سة بري أضاعتني، أضاعتني داخل الأوقات، حين كانت عائلتي تنام كنت أسهر، وفي النهار كنت أنام، أحببت أن اضع الوقت للوقت، ولا يضع لي الوقت وقتًا للنوم، أحببت أن أفهم أسرار الليل وزقزقة النجوم، في الأوقات التي كان أفراد عائلتي ينامون جميعًا، كنت أصعد إلى سطح المنزل وأتمعن مليًا النجوم والليل، كانت أمي تستيقظ وبصوت ناعس ومليء بالخوف، الخوف من أن يستيقظ أبي ويعلم بأمري والنجوم...، لا عذرًا، كانت تظن أنه سز بيني وبين «سة روة ر» لأنها قالت لي بصوتها وعينيها المليئتين بالتهديد: «في النهار لا أسمح لكِ بذلك، وبالليل تصعدين إلى السطح لكي تقابلي سة رة الحالم، قسمًا لأصرفنكِ مثل سة بري» وهددتني «ئة جي» جارتنا بإشارات يدها كالشرطة عدة مرات وقالت لي: «آه، أعرف أنكِ تحبين سة رة الحالم، حسنًا سأقول لأمكِ في يوم ما». كانوا ينادون «سة روة ر» ب «سة رة الحالم» لأنه كان عاشقًا للشعر، ويكتب أشعارًا جميلة ويرسم لوحات، ويكتب لي أيضًا أشعارًا، كان قد رسم لي عشرات البورتريهات، وبصراحة كانت رسوماته لي أجمل مني، أتذكر أول مرة جاء إلى محلتنا آراني لوحة كانت تشبهني كثيرًا، كان صغيرًا أيضًا، لم نكن نعلم شيئًا عن إفشاء الأسرار والتعبير عن الأشياء، إلا أنه قال: «انظري إلى هذه الصورة، قبل أن أراكِ وحتى قبل أن نأتي إلى هذه المحلة رسمتها، إنها الفتاة التي يحبها خيالي، أنت تشبهين كثيرًا لوحة خيالي». كان هذا أول حديث بيننا.

أمي أيضًا محيرة، فلم يكن منزلهم قريبًا من منزلنا كي يوصل أشعاره إليّ، بيد أنه كان يعطينيها في طريق المدرسة، كانوا يسكنون في الطرف الآخر للزقاق ونحن في هذا الطرف. يا إلهي كم كنا نحب أن نكبر بسرعة ونخلص الإعدادية وندخل في الجامعة ذاتها، كي نستطيع مجاراة الحديث

مع بعض حسب هوانا، ودون تهديدات الشرطة من حولنا، كان هو يكبرني بعدة سنوات، إلا أنه كان يرسب نفسه كي ندخل الجامعة سوية، كان يحب السهر بالليل أمام أشعاره وفرشه، وأنا أمام النجوم، كان يقول لي: «لا تخافي أبدًا من زقزقة النجوم والسهر معها، فقط الليل والنجوم والشعر واللون يعرفوننا بأنفسنا». غالبًا لم أكن أفهم كلامه، بيد أنني كنت أحبذه، لأنه يحثني أكثر لعشق الليل والنجوم ولم أكن أخاف تهديدات أمي لأنني لم أكن مثل سة بري.

كنت أحب النجوم، سة بري كانت تحب الجلباب الأحمر والأقراط والعقد، أتذكر حين وقفت سيارة الجيب القديمة والمتكسرة أمام منزل جدتها، ونزل منها رجل كبير السن برداء بني وعمامة قذرة وأنزل بيديه بعض أكياس الفاكهة، ونزلت معه امرأة مكسوة بالسواد ودخلا المنزل. كانت سة بري ما تزال تلعب في الخارج، وأول ما رأت الأكياس هرعت إلى البيت لتفتشها، قال لها خالها بابتسامة مليئة بالدهاء وبعيدة عن فهم سة بري: «من اليوم فصاعدًا ستكونين ملكًا لهذا الرجل وسيشتري لكِ الكثير من الأشياء الجميلة» ومع الكلام أخذ ظرفًا كان بيد الرجل العجوز ويخرج منه زوجًا من الأقراط وعقدًا من الذهب ويريهما لسة بري «انظري لقد جلبهما لكِ، يجب أن تتزوجيه» ولشدة فرحها بالأشياء لم تلاحظ كلمة الزواج، ولكن بالنسبة لفتاة يتيمة ومعدومة، لم تر شيئًا جميلًا في حياتها؛ وأحلى كلام معها كان تعليقات أطفال المحلة، كان تحاول فقط بفكرها الطفولي أن ترد على تلك التعليقات، كانت تقفز من الفرحة، ثم قالت فجأة: «أرجوك يا عم، هل ستجلب لي جلبابًا أحمر؟» لم يكن الرجل ذو الرقبة الرفيعة قد قال شيئًا حتى ذلك الحين، فقال ضاحكًا: «نعم، نعم، وأجلب لكِ أيضًا جلبابًا أصفر». انزعج أهالي المحلة من زواج هذه الطفلة، لم تكن أمي حينها أم شهيد وعينها مغرورقة في البكاء، كانت من نساء المجالس والصحبة الطيبة، قالت للرجل العجوز: «يا أخي إذا كنت لا تتزوج من امرأة في سنك، فلا تقترن بطفلة من عمر أحفادك» فقاطعها خالها: «نحن نعرف ماذا نفعل» هذه الكلمات أساءت أمي، وأصابتها بالاشمئزاز: «إذا كنت ستزوجها لا محالة فزوجها من شاب، وليس من هذا العجوز الذي تشبه رقبته بامياء الحلة» يا إلهي ماذا تعني بامياء الحلة؟ وكيف كنت سأتجرأ في تلك الأثناء على أن أسأل أمي الغاضبة، بيد أنني أعرف أنني لم أتذوق البامياء منذ ذلك اليوم، وفي ذلك اليوم الذي أقاموا فيه العرس، كنت قد اندهشت كثيرًا من النساء اللاتي كنَّ يطبخن البامياء، ولولا ذلك الحبل الذي كنَّ قد نصبنه حول موقدهنَّ كحدود للأطفال حتى لا يقتربوا

منهنَّ أكثر، كنت قد وقعت في إحدى تلك الطناجر الكبيرة لمرقة البامياء.

الحبل؟ قلت إنني أكره الحبال، منذ الطفولة لا ننسجم سوية «لا يا عزيزي سة روة ر، لن نقتل أنفسنا بالحبل» كان سة روة ر لا يزال نائمًا وأصابعي كانت ما تزال تسبح في خصلات شعره، كان يحب أن يسمع صوتي قبل النوم تلك الأشعار التي كتبها لي، وأنا كنت ألقيها عليه وأحيانًا كانت تتحول إلى أغنية هادئة وحزينة تنسكب على خصلات شعره الأسود، أحس أن فتح النافذة بلل شعره بندى الصباح، لا أريد الكف عن خصلات شعره وأذهب لغلق النافذة، من يجزم أن المسافة بين أصابعي وخصلات شعره لن تصبح كمسافة السماء والبحر، ونعيش في لون وصورة بعضنا البعض ولا نلتقي أبدًا، والبحارة القساة لا يصطادون أسماك النظرات وأصابعي. مداعبة نسيم الصباح بستارة النافذة، تسرق نظراتي إلى خارج النافذة، إلى سطح سيماء البحر المنتشي، حتى أنا لا أعرف لماذا أكنُّ كل هذا الحب للبحر، ولا أفهم لماذا بعض المرات أخاف منه، لماذا يجب أن يعيش الحب والخوف معًا في هذه المنطقة، لولا خوفي من الصيادين، الذين شغلهم اصطياد الناس، لأحببتُ قضاء الصباحات في التمشي على ساحل البحر وأجعل من صخرة مبللة على الساحل كرسيًا وأمدّ رجليَّ إلى البحر. يقول سة روة ر عندما تمدين رجليك إلى البحر يتغير اللون البني لعينيك إلى أزرق بحري، إنه يحب أن ينظر إلى عيني ونحن على البحر، وأنا أحب الأنهار والبحار أكثر وحتى عيون المياه التي تجذبه لي أكثر، فهو الذي جعلنا أنا والبحر والنجوم ثلاثًا لأم واحدة، لقد لصق كل النجوم في لوحاته وأشعاره جراء حبي للنجوم، أول قصيدة أرسلها لي قبل ١٤ عامًا كانت بعنوان البحر، كنت حينها في الثانية عشرة من العمر ولا أفهم معناها، إلا أنني كنت أعرف لماذا يقول لي عروس البحر وما هو البحر وكنت أنجذب إليه يومًا بعد يوم.

أربعة عشر عامًا! يا إلهي كيف استطعنا الصمود أمام كل هذه الآلام؟ أي سبحة للآلام حباتها تكفي لأربعة عشر عامًا؟ أربعة عشر عامًا من الاختباء، أربعة عشر عامًا من اختباء الروح، والآن تسعة أشهر من اختباء الجسد، يبدو أن الحب هو عبارة عن فن الاختباء، والاختباء هو عبارة عن فن الطيران، فنّ بشرط واحد لا غير: إما أن تخبئ روحك من الحب وتظهر جسدك، أو تطمئن روحك وتخبئ جسدك. لقد جربنا الفئين كليهما، لا يمكن إلا يصل روح إلى إلهة الحب ويفهم شروطه، الجهلاء لا يعرفون أن سحر الحب في الاختباء، ولو كشف هذا السحر، يبطل الحب، فالحب فن.

- فن.. فن، وأي أشيائك ليس بالفن يا حبيبي سة رة، من روحك إلى

بوصلات وجودك وهدهدة الحياة، حتى أنك حولت جسدي إلى لوحة فنية.

- يا حبيبتي بيان الحب فن، والمحافظة عليه خلود، ولا يستطيع كل شخص أن يكون فنانًا، وقلة من الفنانين يستطيعون أن يمتلكوا فنانًا خالدًا، الناس يحبون من دون ممارسة الفن؛ لهذا نسوا الطيران.

قال هذا الكلام في ذلك اليوم الذي انتهى حديثًا من رسم إحدى لوحاته، وأنا مع تقبيل كل فرشه المتسخة بالأصباغ واحدة تلو الأخرى؛ سألته ألف سؤال، كنت أريد البقاء بجواره، وهو مشغول في صنع لوحة.. نعم.. نعم كانت حجة للبقاء، هو كان يريد أن يجعلني لوحة طينية، كلا، أن يجعلني تمثالًا، وإلا فتطييني من الخارج لوحدي دونه، كان يعني الموت، لأن وجودنا منعزلين عن بعضنا كان يساوي الموت. لم يكن الذنب ذنبه، بل كان ذنب طبيعة دموعي التي تحولت فجأة إلى كرستال.

كنا قد غيرنا عشرات الأماكن للاختباء من البشر الأموات الأحياء الذين كانوا يتبعون ظلنا ويقتفون خطواتنا، فكان لا بد إما أن نكون نحن أيضًا أمواتًا أحياء، أو نبعث الحياة من خلال اختبائنا بحياتنا، إلا أنَّ مشكلة الاختباء خلقت معها كيفية المعيشة، لأنَّ الإنسان المختبئ لا يستطيع أن يصبح صاحب هوية، وانعدام الهوية يجر معه البطالة وانعدام المأوى. ونحن بسبب الأناس الفضوليين لم نكن قادرين على الخروج والاختلاط بالناس والعمل، ولم يكن ذلك قد شكل لنا مشكلة القرار الأخير، بل عزلنا في المكان بسبب افتقارنا للمال، كنا نحن نريد الحياة وأيضًا لم نكن نحن! كنا نختار الموت ولم نكن نختار، من كثرة ما تدارينا من البشر؛ كدنا أيضًا نضلّ عن بعضنا البعض، إلى أن تعرفنا على ذلك الرجل في أحد المطاعم، فبعث الحياة في عدد من أيامنا القادمة، فقد شرحنا له ظروفنا، بيد أننا لم نقل له إننا هربنا بسبب جريمة الحب ولا أحد يتقبل اجتماعنا نحن الاثنين سوية فهربنا معًا، بل قلنا له إننا هربنا من مدينتنا بسبب الثأر العشائري، وبسبب عداوة بيت خالنا ولكي نعيش في هدوء هربنا من هناك إلى بغداد ونريد منه مساعدتنا للخروج إلى سوريا أو الأردن، عاهده سة روة ر أن يعمل في المعامل التي يمتلكها هذا الرجل هناك لمدة ستة أشهر بالمجان، فقال لنا أن نقابله بعد يومين في فندق زمرد، فذهبنا في الموعد المحدد وسألنا عن اسمه، فقالوا لنا:

- هل أنتما سة روة ر وبيان؟

- صاحبكم الذي تسألون عنه ترك لكما هذا الظرف وهذا المفتاح.

كان في الظرف خمسون دينارًا والمفتاح كان للغرفة رقم ٥٠٨ قد كتبه

لنا على ورقة، كان يجب عليه العودة وقد حجز تلك الغرفة لمدة شهر واحد، وسيعود قبل الموعد بخمسة عشر يومًا ونستطيع أن نعيش في تلك الغرفة بقية نصف الشهر الباقي. كنا نعرف أنه حجز لنا الغرفة بنفسه والباقي قصة مفبركة لعدم الإحراج ومراجعة أنفسنا، رغم أن التأسف في البداية على حالنا جعلنا صامتين وغاضبين؛ ولكن في النهاية وجود إنسان واحد ما زال يتذكر الطيران أسعدنا كثيرًا، تريد الصراحة كان سة روة ر فرحًا أكثر بالخمسين دينارًا، ليس لنفسه بل من أجلي أنا، فأخذني إلى الغرفة ورجاني ألا افتح الباب لأحد ولا أرد على الهاتف، وعدني أن يعود بعد ساعة واحدة، وكان كذلك فعلًا، فقد عاد قبل الموعد إلا أنه كان قد صرف من المبلغ عشرين دينارًا اشترى به طينًا خاصًا ليعمل لي تمثالًا.

وجد سة روة ر عدة حكم من عمل ذلك الطين، بيد أنني كنت أعلم أن أحكمها لديه أنه كان يريد أن يحافظ علي بالاختباء، ويخلد في لوحة فنية تلك القطع الزجاجية والكرستال الذي انهمر من عيني. نعم قطع زجاجية وليس كرستال، فذاك مصيبة أخرى، فسابقًا كان أهالينا فقط يبحثون عنا للانتقام منا بسبب عصياننا، والآن فقد سمع الناس بقصة الكرستال وبات حتى أئمة الجوامع والجرائد يبحثون عنا ليصلوا إلى حقيقة هذا السر. في الحقيقة لا أعرف ماذا أقول لهم، وأيُّ حقيقة؟ فلم أحمل في جعبتي أكثر من أنني حلمت في ليلة من الليالي أنهم وجدونا وقتلوا سة روة ر أمامي، ومع أول صرخة فزع لي بدل الدموع كنت أبكي قطعًا من الزجاج الصغيرة، أو بالأحرى كانت دموعي بعد الانهمار تصبح قطعًا كرستالية صغيرة، لم استطع التوقف عن البكاء حتى بعد استيقاظي، وغطت تلك القطع الكرستالية تلك اليد التي كنت قد وضعتها تحت رأسي حتى الصباح، وكذلك القطع الكرستالية التي تكومت تحت سريرنا وجمت سة روة ر لدرجة كبيرة بحيث ظننت أن كل الخوف والوجوم الموجود في الدنيا تجمع في عيني سة روة ر وطلبوا منه الإذن ليمارسوا المارش، ورغم أنه كان يبين نفسه بأنه طبيعي وأنني أجمل بوجود السحر، إلا أن مشكلتي أيضًا لم تكن في تغيُّر دموعي، بل كانت أيضًا في سماعي للتفكير الباطني لسة روة ر، ليس فقط كل ما يحس به، بل حتى كل كلمة قبل أن ينطق بها. كنت متأكدة أنه أيضًا على علم بكل أحاسيسي وخواطري وخيالاتي، لدرجة أنه كان يحقق كل ما كان يجول في خاطري قبل أن أنطق به، كان قلبي يقول: «حبذا هذه الدموع الزجاجية لم تفنَ مثل حياتي وتصبح قصة في فم الرواة وتروى كدليل تاريخي على حقيقة عشقي».

إلى تلك اللحظة كان سة روة ر يضم بيده رأسي بقوة إلى صدره وبيده

الأخرى يوكز تلك الكرستالات الصغيرة، القلق والخوف أصاباه بالهستيريا، القلق من ألا أبكي مرة أخرى، وإذا بكيت ماذا سيحدث؟ يا ترى ألا تطفئ تلك القطع الزجاجية نور عيني بشكل نهائي؟ قلقه الأخير كان يحاصرني أيضًا، ليس في فقد ناظريّ، بل إنني لو فقدت ناظري فلن أراه مرة أخرى، وهو كذلك كان يساوره ذات القلق:

- كيف أطمئن أن هذه الدموع لا تؤذي عينيكِ وتخدشها وتفقدم ناظريكِ؟

- لا، لا، لا تخف من ذلك، إنها في داخل عينيّ طبيعية مثل ذي قبل، إلى أن تظهر ثم تصبح قطعًا زجاجية صغيرة.

ينهض قافزًا ويهرع إلى النافذة وتمشط عيناه كل هموم النهر، يمد يده لباقة الورد الذابل فوق التلفاز، ساقه اليابس والجاف وأوراقه المتيبسة تصبح همًا آخر له، فيلتفت إليّ وكأنه يقول لي إننا مذنبان تجاه هذه الورود، من كثرة استسلامنا لهمومنا نسينا الاهتمام بهذه الورود، ثم يرمي بالورود اليابسة في سلة المهملات ويجلب المزهرية ويضع فيها الكرستالات المتساقطة من عيني ويتجه نحو الحمام ليعمل في مزج الطين الذي اشتراه ويضع فيه الكرستالات أيضًا ويعود إلى مزجه من جديد، ورغم أنه كان سيصنع تمثالًا للمرة الأولى، لأنه كان رساما تشكيليًا وليس نحاتًا، فقد كنت أول تمثال مصنوع من قبل سة روة ر، تمثالًا مصنوعًا بيوم وليلة واحدة، لا أحد يعلم ما هي أفراح وأتراح التحول إلى تمثال، بالنسبة لي فإنني أتذكر أكثر انزعاجاته، وكيف أنسى، فلم يكن هينًا أن تترك الدنيا وتكون مع شخص ثم ينتهي بك المطاف في قالب من الطين، ماذا أفعل فهذا قدري، يجب أن أكون في حرب دائمة مع الزمن لكي لا يحرمني من سة روة ر، ولم أكن أريد أن أطفئ بريق ذلك الأمل الذي كان يتوقد في عينيه بقولي إن جسدي المليء بآلام الاختباء لن يصمد أمام هذا الطين، وروحي الشبيهة بالغربال بسبب الادعاءات والقذف لن ترتاح بغيابك، وحتى أنني أقول: أحس بأنني وصلت إلى النهاية ولا تتعب أصابعك الفنية بمحاولة إبقائي حيةً، ليبقى تمثالك الجميل هذا حيًا ولا يفنى بسببي، هل أقول اعذرني يا حبيبي سة روة ر فأنا المذنبة، أنت ينبوع ينضح منك الفن في كل الأوقات، كان يجب أن تقترن فقط بالفن، فأنا عزلتك عن الفن والشعر، أي فنان يستطيع صنع تمثال قيم خلال ليلة وضحاها مثل الذي صنعته؟ لو كنت أعلم أن حبي سيلحق بك كل هذا الضرر، لكنت ضحيت بنفسي من أجلك ولما اعترفت بحبي لك، ليس ذلك من ضعفي، بل فقط من أجلك ومن أجل عشقك، لم أكن أعرف قط أن

وجودي معك سيعرضك لهذه المخاطرة، لو كنت أعرف أن حياتي ستعرض حياتك للخطر؛ لكنت أطفأت شمعتها سريعًا، رغم أني لا أجرؤ حتى الآن على التفكير في ذلك الشرط. لا أخاف من الموت؛ لكنني لا أستطيع الموت دون أن أراك، يا إلهي لهذا القدر الذي قدرته بأن تطلب الموت والحياة لشخص في آن واحد. بيد أن الحياة بعد الموت أحلى، وحياتي ابتدأت بعد الموت بمرتين، مرة بعد هروبي حيث لم يجدني أحد، والمرة الثانية حين داهمتنا المخابرات. ورغم أنني أحببت ذلك من بعض الجوانب، إلا أن الجانب الحزين منها أنهم نثروا كل جهود وأعمال سة روة ر هباءً، حيث إنهم دمروا التمثال حتى أوصلوهإالى هناك، علاوة على ذلك فإنهم أجهضوا حلم بقائنا، الحلم الذي كنت واثقةً بأنه يشبه حلم إنسان لا يعرف السباحة ويلقى في البحر فيتشبث بالقشة أملًا في النجاة. كسر خاطره كان بالنسبة لي أقسى من الإنقاذ من الغرق، وهم الذين فقط قطعوا عنا سبيل الأمل حتى نقرر بشكل نهائي؛ خاصة عندما وكزه أحدهم بفوهة بندقيته وقال له:

- أكنت تريد أن تخرب السلام العالمي وتخلق ثورة؟

- أي سلام عالمي وأي ثورة؟ أنا أريد خلق قليل من السلام لي ولهذه المرأة التي ورطتها معي.

- هذه إهانة للرئيس وقراراته والأمن الوطني، هل كنت تظن أننا ضعفاء لدرجة لا نستطيع تأمين الأمان للمواطنين وأنتم تضمنون لأنفسكم ذلك، أيها التافه كيف تجرأت على قول ذلك، هيا تقدم أمامنا لنأخذك للأمن، وهذا التمثال الذي صنعته سنضعه في سيارة ونأخذه للفحص لنرى ما نوع المتفجرات التي وضعتها فيه.

- يا سيد أية متفجرات؟ أنت ترى أن فيه امرأة وهي حبيبتي، أقصد زوجتي، لقد عقدنا القران دون موافقة أهالينا وهم يبحثون عنا لقتلنا. وقد جعلتها تمثالًا طينيًا حتى إذا عثروا علينا لا يعرفون مكانها وأكون بذلك قد حافظت على حياتها. والآن ها أنتم قد عرفتم بقصتنا وتستطيعون الآن حمايتنا، ولا نُقتل ظلمًا وكأننا في دولة بلا قانون.

- أهها؛ وأيضًا ارتكبتما إثمًا اجتماعيًا، وليس فقط جرائم سياسية؟

- أظن أننا مستعدان للذهاب إلى السجن بتهمة جرائمنا السياسية والاجتماعية التي نريد بها أن نكون إنسانين فقط، إنسانين بلا أنياب.

ضربوه صفعة وقيدوه وجرجروه إلى السيارة، إلى ذلك الحين كنت حابسةً دموعي في بودقة عيني، كنت خائفةً من أن يروا تلك القطع الزجاجية الصغيرة، فقد كنت من جهة معاهدةً سة روة ر ألا أبكي؛ ومن

جهة أخرى كنت أخاف أن يضعوني أمام الإعلام لبث هذا السحر فيجدوني، ولكن بعد أن صفعوه لم أستطع بدًا من حبسها وبدأت تنزل تباعًا إلى أسفل تمثالي. كان سة روة ر ينظر إليّ متعاطفًا ولم يستطع أن يحرك يديه لمسح دموعي حتى لا تخدش خدودي. وعندما رأى الجلادون دموعي تلك، صاح أحدهم:

- أيها المجرم، أوتعرف أن هذه الكرستالات ثروة قومية ومصدر اقتصادي كبير وأنت حصرتها لنفسك؟ الآن عرفت، أنت خطفت الفتاة الساحرة وخبأتها في هذا التمثال لكي تحرم اقتصاد البلاد من هذه الثروة وتشفطها لوحدك.

أمام المخابرات ورجال الأمن اتهمونا كثيرًا ولكن دون جدوى، إذ لم يكن لدينا شيء نرد به على كلامهم التافه، كنا نحبذ أن يسجنونا سوية ويبعدونا عن أعين الأناس الفضوليين. كانوا يقولون إنك متهم بأربع جرائم، جرائم سياسية، اجتماعية، اقتصادية وخطف فتاة. نحن كنا ننصت لنظرات بعضنا البعض ونسمع فقط دقات قلبينا، ولم نسمح لهذا العواء أن يشوش علينا ألحان قلبينا، لم تغير صرخاتهم وإهاناتهم وتعذيباتهم فينا شيئًا، حتى حين عزلوني عن سة روة ر وأخذوني إلى غرفة مثلثة ذات رطوبة، وقالوا لي ستبقين هنا إلى الأبد لكي تبكي ونبكيكِ حتى نستخلص أكبر كمية من كرستالات عينيكِ، كم كانت تعذيباتهم مضحكة لكي ي جعلوني أبكي باستمرار، حيث إن دموعي لم تعد تنهمر كرستالًا لهم بل عادت إلى حالتها الطبيعية، لم تعد دموعي تتحول إلى كرستال، فلم يعد لديهم حيلة، فجاءوا بسة روة ر وقالوا لنا سنفرج عنكما وعودا إلى الفندق، فلربما هناك تبكي عيناها دموعًا كرستالية، وستكونان تحت المراقبة وإذا تحوّلت دمعة واحدة من دموعها إلى كرستال ولم تخبرانا فستعاقبان بشدة.

شيء مضحك؛ الكل يبيت لنا عقوبات شديدة، نحن لا نخاف بعد الآن من العقوبات، العقوبات لهؤلاء الذين تستطيع تلك العقوبات أن تحدد إطارًا لوجودهم، إلا أننا حتى الآن بشران عاريان، عاريان جدًا، ولم تستطع العقوبات ى ن تغطينا، حماي الذي لم أره إلا في الحلم قال لي: «يا ابنتي ى نتم قد ولدتم عجولين، فلا تموتن أيضًا عجولين، أرجوكم» كنا قد تعرينا من كل الآثام الدنيوية الشرعية، ولم يعد لدينا شيء يتمسك به أحدهم.

الأشعة الحمراء في السماء تبشر بقدوم الصباح، فقط ذلك الشعاع كان يربطنا بالوقت، لا أعرف في أي ساعة عدنا وفي أي ساعة كتب سة روة ر وصيته الأخيرة، وكم الساعة الآن، فقد وهبنا ساعاتنا البارحة إلى البحر،

فبعد أن خلعنا ساعتينا من معصمينا قذفنا بهما في البحر، كعهد للحب الأبدي، الحب الذي يتجرد الوقت أمامه من الوقت ولا يعرف حدودًا ولا وقتًا ولا مكانًا، إلا أننا حين عدنا عرفنا أن غدًا هو آخر يوم لنا في الفندق، وليس لدينا مكان نذهب إليه ولا لدينا مال وليس لدينا سلطة على ثلة المخابرات ولا على الأناس الفضوليين، بيد أننا كنا قادرين على الخلود الأبدي، على الانتحار، على الإحساس الحي، فقد قررنا ليلة البارحة أن نكون أبناء البحر في الصباح، حتى نبقى معًا إلى الأبد تحت مظلة العطف والحنان، وعند بزوغ الشمس التي كانت صديقتنا الدائمة، نقذف بنفسينا في البحر ونقبع في دهليزه إلى الأبد.

يهزنا النسيم الذي يهبّ على الشباك، ويقول لنا أسرعا فقد جاء الصباح واستعدا لتنفيذ قراركما، ويرمي بصفحة من صفحات وصيتينا إلى الأرض أمامي: «نحن (بيان و سة روة ر) قررنا أن نعشق بعضنا إلى الأبد، ونكون في الموت أيضًا معًا، في حياة البؤس، نتحرر من الحياة التي هي عبارة عن روحين محبوستين في جسدين، وسننبعث معًا في روح واحدة، كما كنا قبل أن نولد حيث فصلنا عن بعضنا.. واحتجنا مرة أخرى إلى ٢٥ عامًا للسؤال والبحث والبكاء والانتظار حتى نلتقي ببعضنا مرة أخرى، فبكينا حينها سوية، لأن كلًا منا كان يريد الآخر، إلا أنهم لم يفهمونا ولم يفهموا هذا الالتقاء».

ما زالت أصابعي تداعب خصلات شعره، لا أريد أن أترك شعره ولا الوصية، لا أريد أن أتحرك وأوقظه، أريد أن يستريح قدرًا كبيرًا ليكون خزينًا لسفرنا الصعب الأبدي. يصبح النسيم ريحًا قوية، فأضطر إلى النهوض وأجمع الأوراق وأضعها تحت الكتاب الذي على المنضدة، كان عنوان الكتاب: «دخان الغرفة» يحث عيني على التمعن في الغرفة، أحس أن دخانًا قذرًا بات يخفي عني السرير، يستيقظ سة روة ر وينظر إلي بعين وداعية، وتنظر الشمس بتناوب مع الشباك.

١٢ تموز (يوليو) ٢٠٠٧، كندا

تعال لنرقص مغا

كثرة الناس الذين جاءوا لحضور مهرجان الورد والمحبة تخبرك أنّ هذه المدينة هي أكثر مدن العالم ازدحامًا بالسكان. آلاف الأطفال نظموا بشكل فني وأصبحوا ديكورًا للمكان، الاف العشاق أيضًا يحضرون أنفسهم لتبادل أجمل الكلمات، لمعان الكرستالات يحتاج إلى عيون قوية للصمود أمامه، ضحكات الأطفال وبراءتهم تحث الأرواح على حب الحياة، وهمسات العشاق وقبلاتهم وأسرارهم تجدد عهد الحياة.

رغم أن عجائز هذه البلاد أكثر عشقًا وأناقة من شبابها، إلا أنهم يحبذون الذهاب إلى المناسبات التي تحمل أساميهم، إنهم مستاؤون من عدم تنظيم مهرجان خاص بهم تحت عنوان مهرجان ورد ومحبة البالغين، ولو قلت حتى بالسهو، العجائز، فإنك ستكون قد تدنيت في حدود اللياقة وتعديت أخلاقيات النيافة. بيد أنّ بعض البالغين الذين جاءوا من بلدان العالم الثالث واستقروا هناك، كانوا يشاركون فيه، ورغم أنهم كانوا غالبًا يذهبون وحدهم إلا أنهم لم يكونوا يستطيعون الابتعاد عنه، كونه أصبح بالنسبة لهم أفيون المنات من الأماني الضائعة.

- لا تبدين غريبة بالنسبة لي، هل نعرف بعضنا؟

رفعت مينا رأسها لرؤية السائل، فرأت امرأة قصيرة القامة إلى حد ما، تناهز أكثر من خمسين سنة وغزا الشيب رأسها، إلا أنها ما زالت نضرة ويبدو عليها ترف العيش وحب الكلام، طغى التعجب وبعض من تلك اللحظات وذكريات ماضية على بعض آخر من تفكيرها، إنها ليست بالغريبة بالنسبة لها، ولكن لا تستطيع القول أيضًا إنها هي «من قارتين مختلفتين فماذا يجمعنا الآن سوية، كلا، لا أعتقد أنها بهية» تخرج المرأة صورة من محفظة يدها، وتُريها لمينا، تظهر هي فيها جالسة مع مينا وامرأة أخرى وهناك رجل يظهر في الصورة جالس بعيدًا قليلًا، هو ذاك الرجل، والمرأة هي أختها بهية، كيف وما الذي جاء بها إلى هنا؟ هل من المعقول أنها قالت له كل شيء ومن أنا؟ طغت هذه الأسئلة على تفكيرها حتى صارت تتلعثم في الكلام.

- هل تتذكرين عندما كنا صديقتين مقربتين من بعضنا وكان أخي آزاد يريد جذب انتباهكِ إليه، وعندما أصبحتِ صديقة لآزاد تسيتني وابتعدتِ عني؟

- ها... أصحيح ذلك؟ هل ابتعدت؟

عادت بذاكرتها إلى ثلاثين سنة قبل الآن، وتنقطع عن الحاضر وكيفية

إجاباتها، إنها تتذكر جيدًا وكيف تنسى، فهما كانا معروفين كطالبين متحررين في الجامعة، حتى أن كثيرين من زملائهم كانوا ينتظرون منهما تغييرًا وصداقة فريدة من نوعها وسط مجموعتيهما، ورغم أن مينا كانت تظهر في بعض الأحيان اختلافًا في أخلاقها وأفعالها، إلا أن آزاد كان ينهي ذلك باتهام مينا بأنها حساسة أكثر من اللازم وتتخيل أشياء من تلقاء نفسها، إلى اليوم الذي قررا فيه أن يحتفلا مثل بقية بلدان العالم بيوم الحب، ويحتفلا في يوم فالانتاين، على الأقل يعلموا ثلة من أصدقائهم أن يحتفلوا معهم في يوم من السنة وسط كل تلك المناسبات السياسية واذكار الكوارث والأعياد الدينية للحظات من أجل الحب.

من يسمعهما، نادرًا ما يعرف أحد من تلك الثلة ما هو فالانتاين، أو هناك يوم في العالم من أجل الحب. فيضطران إلى اللجوء لأصدقائهما المسيحيين فهم منفتحون أكثر، فيتفقان معهم وينظمون احتفالًا بمناسبة ليلة فالانتاين، كانت مينا تحلم بتلك اللحظات التي ترقص فيها معه بعيدًا عن الأعين الخبيثة. «الرقص، الرقص، إلى أقاصي الحلم، الرقص إلى أقصى حد من التعب، إلى حد تساقط جميع الآثام، الرقص، الليلة سأؤدي أول رقصة هادئة في حياتي مع رجل أحلامي. رقصة هادئة، الرقصة التي أحبها، فلي رأيي وقراءتي الخاصة بها، عندما تمسك يده اليسرى خاصرتي، معناه أن يدي اليسرى القريبة من قلبي والملفوفة حول ظهرك، كي يبقى ظهرك مسنودًا بهذه اليد الملأى بعاطفة القلب. وتستقر يدي اليسرى على كتفه، بمعنى هذه اليد، هذه العاطفة الداعمة ستبقيك في ظل حنانها، تضيع أصابع يدي اليمنى بين أصابع يده اليمنى وتتشابكان دلالة على الخلود والعشق الأبدي، الخطوة إلى اليمين دلالة على بقاء ذلك العهد القابع في يدينا اليمنى، والخطوة إلى اليسار هي استذكار وتقديم لليد الساندة للظهر، الجانب الذي بدقاته الرومانسية ينظر بها الحي إلى الحياة».

مثل الرجال الآخرين الذين يرقصون مع النساء، سيقوم هو أيضًا من على الكرسي الذي بجانبي ويمد لي يده اليمنى ويأخذني إلى وسط المتراقصين، الرقصة الخاصة التي تعرفنا على الحياة، لماذا هو صامت؟ لماذا لا يعيرني أي انتباه ويتحملق مليًا النساء اللاتي تمسك أيديهن بأكتاف الرجال ومنشغلات بالرقص والتهامس، ليس هناك أحد جالس على المقاعد غيرنا نحن الاثنين، فماذا ينتظر؟ لماذا هو واجم في التمعن هكذا؟ إذن لماذا قررنا أن ننظم هذا الاحتفال ما دام يشبه جلسات المقاهي؟ نحن لم نأت فقط للنظر إلى سعادة الآخرين، هذا الوضع بلا فائدة يجب أن أبدأ أنا بفتح نوع من الحوار معه بحيث يجذبنا إلى وسط زملائنا.

- الإنسان والقمر يتشابهان، كلما كان جانب منه مضاءً كان الجانب الآخر منه مظلمًا، لا أعرف يا آزاد هل أنت من الجانب المظلم، ولكن حبذا لو لم تطفئ الجانب المضيء.

- الأفضل أن لا تتعبي نفسكِ بمحاولة فهمه يا مينا، فالحياة مليئة بالظلام ولو حاولتِ أن تفهمي كل أسرار الظلمات فإنك ستتعبين.

- نعم أعرف أنه بحث متعب، ولكن الحياة نص مسرحي غير مقروء، ولو كنا قد قرأناه لما قمنا بأدوار فيها، لذا فالواجب يحتم علينا أن نتعب لإضاءة الجانب المظلم.

- أعرف أنك تحبين تجاذب الحديث الفلسفي، إلا أن تلك الإضاءات ليست بالدرجة من القوة حتى ننير بها الجانب المظلم، لأن الحياة تشبه كتابًا نحن فيه خطوطه المتربة.

- إذن قم بنا لننفض عنا بالرقص بعضًا من تلك الأتربة، لنندس بين زملائنا ونرقص، لنرقص حتى نصل إلى تلك الإضاءات.

- هل أنتِ مجنونة، أنت لست امرأة محترمة، كيف سأسمح لكِ أن تهزي خصركِ لكل هؤلاء الرجال.

يرجع إلى المقعد ويثبت رأسه بقوة على ظهر المقعد، ويقول بصوت مليء بالصدمة والارتجاف:

- إذا كان هذا وضعك وهذا مضمونك، فلماذا إذن أديت كل هذه الدراما؟

- لماذا نظمت هذا الاحتفال، هل لمجرد المشاهدة فقط؟ عندما كنت أقول لك إنك أصبت بمرض القول بلا عمل، كنت تضجر من ذلك، وكنت تقول لي إنكِ معقدة أمام عقول الرجال، إلا أنك حين تعالج عقدك، حينها اتصل بي.

مرة أخرى تعود إلى عالم احتفال الورد وصديقته القديمة، ما زالت تتمعن في الصورة، تقول بهية: «هل تعلمين أنه تحرر من ذلك الوضع، أنت تعلمين أن آزاد كان أساسًا متقدمًا على مجتمعه بنصف قرن، والآن فإن الخمسة والعشرين عامًا التي قضاها من عمره في الخارج حوّلته إلى كائن أكثر غرابة عن مجتمعه». تلوح ابتسامة سخرية على شفتي مينا وتقول بصوت فيه شيء من السخرية: «نعم، كان متقدمًا جدًا على مجتمعه، كثيرًا».

حبذا لو كان كذلك، لا أعرف لماذا ما زلت أشك أن تكون حياة الخمس والعشرين سنة في المهجر استطاعت أن تلملم شخصينه المنفطرة إلى نصفين وجعلتهما كتلة واحدة، كنت أشك حتى في أن المهجر يستطيع أن

يعالج مثل هذه الشخصية، كنت مضطرة، نعم كنت مضطرة، فأنا أراسله منذ عامين مثل امرأة أجنبية عبر الجات، لم أستخدم أبدًا كلمة كوردية، حتى حين كان يقول أنا كوردي، كنت أرد عليه بالقول من هم الكورد وأين يقطنون؟ كنت أحب كثيرًا أن أعرف الحقيقة، لأعرف هل أن إحساسه مثل إحساسي، الإحساس الذي منحته إياه في عمر الخمسة والعشرين ربيعًا، وبسبب انفصام شخصيته، عقلي، لم يسمح لي عقلي بالقبول بهذه الشخصية المهزوزة، إلا أن قلبي ظل معه، ولم تستطع غربة عشرين عامًا أن تنسيني إياه، وحتى عندما رغبت في الهجرة إلى الخارج، وعندما أصررت على زوجي أن نخرج إلى المهجر، كان ذلك بدافع الإحساس إليه، ولكن هو، سمعت أنه يذكرني فقط في أحاديثه بين أصحابه، ليذكرهم بأنه كان على علاقة بي، وهذا فقط في تلك اللحظات ومع أولئك الأصحاب الذين يحسون بفحولتهم في ذكرهم لعلاقاتهم بالنساء، عدا ذلك فإنه لم يفكر قط في الاتصال بي ونحترم معًا تلك اللحظات الغابرة كشخصين سويين.

المرأة أيضًا كائن غريب، كنت أقول دائمًا دعني لا أكون مثله، وأنافس شخصًا ليس لديه شيء آخر ليخسره، كنت أعرف أنني لو قلت ذلك كان سيضحك عليّ، لأنه لا يحسب نفسه إنسانًا فاشلًا ولا خاسرًا، على الأقل أنا استطعت أن أتزوج وأنجب ثلاثة أطفال كل منهم يكاد الآن يجعلني جدة، وظل هو يدور حول نفسه في متاهته ولم يفعل شيئًا، لا زواج ولا إنجاب أطفال ولا حياة ناجحة ومغايرة للمالوف، فماذا لديه إذن ليخسره، أنا متأكدة أنه لا يمتلك شيئًا، حتى ولو يومًا واحدًا في حياته، ماذا يملك؟ طفقت أتحدث إليه عبر الجات باسم مستعار ولغة أجنبية، ولم يستطع حتى أن يخسر روحه، ويقول في مرة من المرات، إنه قد تعوّد على هذه الروح التي تتحدث معه، حتى أنني عندما أردت أن أحيي لديه تلك الذكريات وتلك الروح سألته عبر الجات:

M_a_ry@yt.com

أريدك أن تحدثني عن أقوى علاقاتك التي ما زالت تعيش في داخلك.

Namokurd@yt.com

جئت إلى هذه البلاد وأنا ما زلت شابًا ومنذ ذلك الحين وحتى الآن ما زلت عازبًا، إذن لدي تجارب كثيرة، بعضها تركت عندي ذكريات جميلة وبعضها نسيتها في حينها.

M_a_ry@yt.com

إذن فليس في حياتك أية علاقة عاطفية صادقة تركت فيك الجروح

والأفراح والأتراح؟

Namokurd@yt.com

تعلمين أن غالبية نساء هذا المجتمع غير وفيات، يبقين عند الرجل لحين أن تأخذ مبتغاها، أو أمواله، أو تجد رجلآ آخر من بني جنسها، ثم يقلن لأمثالنا الذين يطلقون علينا الغرباء باي باي، وهذا دفعني إلى التعلق بكِ، لأنني أحس بأنكِ قد تربيت وسط عائلة مغايرة ولم أشعر أن فيك شيئًا من تلك الحركات الشاذة.

M_a_ry@yt.com

إذن لماذا لا تختار إحداهن من بني ثقافتكم؟

Namokurd@yt.com

حاولت كثيرًا ولكن غالبًا لم يكنَّ في مستواي، بما أن ثقافتنا منغلقة، فإن رجالًا منفتحين مثلي لا يجدون نساءً مناسبات لهم.

M_a_ry@yt.com

معنى ذلك أنك لم تُقم أية علاقة مع نساء من مجتمعك؟

Namokurd@yt.com

بلى، بعض الأحيان لقضاء الوقت فقط.

M_a_ry@yt.com

وفي أيام شبابك حين كنت في بلادك، لا أعتقد حينها كنت بمثل انفتاحك الحالي، كيف لم تعشق إحداهن في حينها هناك؟

Namokurd@yt.com

كان عندي بعض العلاقات هناك، حتى أن آخر علاقاتي كانت مع اثنتين في آن واحد، عفوًا أعرف أن هذه الكلمة تضايقكم لأن في ثقافتكم ليس بمستحب أن تكون مع شخصين في آن واحد، بيد أن ثقافتنا تسمح لنا بالزواج من أربع نساء في آن واحد، قصدي أنني كنت أريد أن أقرر أيهما أحسن كي أجعلها زوجة لي، ليس لكوني كنت مقتنعًا بامتلاك أربع نساء وعدم العدالة بينهن، إلا أنهما لم تكونا مناسبتين لي.

M_a_ry@yt.com

هل من الطبيعي أن أسأل عن اسميهما، فقط أريد أن أعرف شيئًا عن ماهية أسماء بلادكم؟

Namokurd@yt.com

طبعًا، كان اسماهما مينا و شيرين.

M_a_ry@yt.com

حسنًا، ليلة هانئة، سنتحدث في وقت آخر.

لم يكن ذلك صدمة هينة على مينا التي جعلت نفسها ماري، وكلما كانت تتذكر الأحاديث الماضية، لم تكن تصدق أن تكون ذاكرته ضعفت إلى هذه الدرجة بحيث ينسى الأدوار التي أداها، لم تكن تصدق أنه ضحك على عقول كل تلك النساء بفلسفته وكلامه الكبير فقط من أجل إبراز فحولته، أو أنه عدا عن الدراما فإنه كان مثل نبات فج. لم تنسَه مينا ولو للحظة واحدة، وحالما توفي زوجها، قامت بالاتصال به بعد ثمانية أشهر ولكن باسم وبلد مستعارين، وكانت تقصد بذلك أن تعرف هل ما زال العقل هو ركابه السابق، أم أن سنوات المهجر الطويلة والثقافة المنفتحة ألبستاه ثوبًا آخر، حتى تتأكد ما إذا كان ما يزال يسبح في تلك البركة الآسنة؛ فهي قبل أن تعرف له شخصيتها الحقيقية تقول له اذهب إلى المكان الذي أنت مرغوب فيه، لكن الذي أسعدها قليلًا، يتبين من كلامه حتى الآن بأنه متغير تمامًا عن الرجل الذي كانت تعرفه في السابق، ذلك المتوحش الذي كان يستطيع أداء دور الإنسان، هذه الأمور شجعتها قليلًا بعد سنتين أن تقول له حسنًا أنا مستعدة للقائك، ولكن بشرط أن يكون أول لقاء لنا في يوم مهرجان الورد والمحبة وأول خطوة لنا نبدأها بالرقص. فقال لها:

- يا له من اختيار جميل، كمن يكون في قلبي تمامًا. إنها رغبتي أيضًا، أن نبدأ الخطوة الأولى بالرقص، الرقص الرقص إلى البعد الآخر للحياة، الرقص هي رغبتي أيضًا، الرقص إلى البعد الآخر للروح.

كانت هذه أحد التعابير التي أوهمت مينا أنه ما زال يفكر فيها، لأن تلك التعابير كانت سابقًا تعابير مينا تقولها له، وبما أنه ما زال يرددها، فذلك يعني أنه ما يزال متيمًا بصاحبتها، أو...!

«أو ماذا يا مينا؟! لماذا تريدين أن تخدعي نفسك مرة أخرى، لم لا تقولين إنه يحتفظ ببعض الكلمات التي يعرف أنها قريبة من رغبات النساء ويستطيع من خلالها اصطيادهن؟».

صوت تضارب أقداح الفودكا وارتفاع صوت الموسيقى يحولان مينا مرة أخرى من أفكار الزمن الماضي إلى لحظات الاحتفال والمهرجان، تجذبها الساعة الكبيرة المعلقة على الحائط الذي أمامها وتصيبها بخفقان مفاجئ. القلق من دنو وقت اللقاء بعشيقها السابق الجديد وما زالت أخته بهية واقفة هناك، مما يفشل ذلك خطتها، فهي لا تريد أن يعرف أن المرأة التي يتحدث إليها منذ عامين هي نفسها مينا، وبحجة قضاء الحاجة تذهب إلى التواليت، وهناك تغطي بعدسات لاصقة زرقاء عينيها السوداوين، وبالنسبة لشعرها الأسود فإن الزمن تكفل بتغيير لونه إلى الأصفر، ما زالت تتمتع بشيء من جمالها، وبروز معدتها يجعلها تبدو سمينة

قليلًا، تقتنع بمنظرها في المرآة، ولكنها تنشغل أكثر بترك القاعة من قبل صديقتها القديمة، تتفقد القاعة من عند الباب فتفرح بأنها لا تراها هناك، فتتوجه مباشرة إلى الباب الشرقي للقاعة، الباب الذي كان من المقرر أن يتلاقيا أمامه، ومن الجانب الداخلي عند المدخل الزجاجي تتلاقى نظراتها بأنوار المدينة التي التفت بجدائل الليل السود، التي تتنافس مع قطعة القمر الأصفر الذي استقر وسط السماء بلون أصفر باهت «إنها ليلة رومانسية حقيقية، وليس للبس القناع والاختبار، لم يكن ذلك اختياري، ولكنني إذا لم ألبس القناع فلن أعرف مثلما كنت في السابق أنه يلبس القناع».

ورغم أن ضغوطات الأيام والأحزان تركت آثارها عليه، إلا أنها تعرفه من بعيد، بيد أنه يبين نفسه على أنه رجل سعيد وظريف، ولم يكن ذلك من أجل إسعاد المقابل، بل من الخوف، خوف الشرقيين من نظرات الغربيين إليهم، تلك النظرات التي توحي أن الشرقيين تربوا على القتل والاقتتال والعنف والموت، وأن جميع العقد النفسية وروح العنف والكآبات تطغى عليهم، لذلك يظهرون أنفسهم بأنهم أبرياء من ذلك ولم يذوقوا تلك المشكلات وأنهم كانوا بعيدين عنها، وعدا عن تصنع الابتسامة والصداقات الزائفة التي تظهر على سيماهم بشكل مقزز.

لم تكن مينا تريد التحدث كثيرًا حتى لا يعرفها من صوتها، تقول: «أظن أنه لم يعد هناك كلام لم تجريه خلال هذين العامين، يتكرر اليوم مرة واحدة في السنة؛ ها أنت في هذه السنة متواجد في يومي هذا، دعنا نبقى على قرارنا وندع أيدينا وشفاهنا تتعارف مع الرقص».

يظهر استعداده لذلك ويمزجان خطواتهما بشكل هادئ مع إيقاعات الرقص الهادئة، يقول آزاد لمينا: «أنت تجيدين هذه الرقصة جيدًا يا ماري» أحبت مينا ذلك وتحقق حلمها القديم، مع الشخص الذي لم تنسه منذ ثلاثين عامًا وأرادت حينها أن تحضن أحلامها تموجات خطوات اليمين واليسار لرقصة هادئة وتعوضها اليوم، ولكنها استحسنت أن تقرأ في البداية بعضًا من فنونه الجديدة في التعامل، وهناك اطمأنت أنه لن يتعرف إلى صوتها بسبب الزحام وصوت الموسيقى، لهذا تقرب فمها من أذنه وتسأله:

- الذي يقلقني أحيانًا هو نظرتكم أنتم رجال الشرق إلى المرأة، فقد سمعت أشياء سيئة.

- نعم، مع الأسف ما زال مثل هؤلاء الفضوليين موجودين في المجتمع الإنساني، أنا شخصيًا تركت وطني للسبب نفسه، لأنني كنت أحد المدافعين

الأقوياء عن حقوق المرأة، وهذا في بعض المجتمعات له نتائج وخيمة ولطخة عار على الرجل، وهذا ما جعلني أنظر إلى الزوجة بخلاف نظرة جماعتي إليها.

- لماذا؟ ألا تقول إنك كنت مدافعًا صنديدًا عن حقوقها، وضد الرجال غير العادلين، لماذا إذن أخرجت المرأة عن نطاق بحثك، فهن لسن أيضًا كالرجال الذين أسميتهم بالفضوليين؟

- في الحقيقة لأن النساء أيضًا ترعرعن في ذاك الوسط، وهنّ يحببن وسطهن، حتى أنني لم أكن أرى هناك أية امرأة منفتحة، تأخذ حتى هذه الرقصة بيني وبينكِ بشكل طبيعي، ويكون بيننا بعد ذلك موعد على العشاء.

وبسرعة أراد أن يمدحها: «أحب زرقة عينيكِ، كنت أتمنى دائمًا أن تكون لزوجتي عينان مثل عينيكِ».

- كنت على علاقة بفتاتين ألم تكن إحداهما تملك عينين زرقاوين؟ ألم تكن إحداهما تحب الرقص؟

- كلا، فالنساء ذوات الأعين الفاتحة قليلات عندنا، ولم تكن إحداهما من الثقافة لتفهم شيئًا عن العالم الخيالي للرقص.

- ولماذا لم تعلمهن؟

- الطبيعة الإنسانية كامنة تحت الروح ولا أستطيع أنا أن أغيرها، وبتغييرها تخرج الروح.

تتضايق مينا كثيرًا من أنه حتى الآن يردد آراءها هي، أحدها كان الرأي الأخير، حين تركته وقالت له: شخصيتك الانفصامية هذه لا أستطيع أنا تغييرها، وطبيعة الإنسان كامنة تحت روحه، ولو نبشت نفسك لأغيرك ستخرج روحك من جسدك، سأتركك..

ولكنها تمسك نفسها وتريد أن تكون إجابة سؤالها الأخير يقينًا لشكوكها، فتسأله:

- وماذا تقول إذا ظهرت إحداهما الآن في هذه القاعة وتعرف الرقص أحسن منك وترقص معك؟

الارتباك يشوش عليه إيقاع صوته وكلامه:

- ماذا تفعلان هنا؟ ولا أفهم أنتِ لِمَ تسألينني كل هذه الأسئلة عن الماضي من قبل، لماذا لا تدعين ماضيًا هو فقط كان ملكًا لي أنا وليس لشخص آخر.

- لأنني بعض من ذاك الماضي، ولدي حق فيه.

وقبل أن تدعه يخبط بركة تعجبه ولو بكلمة واحدة قالت له هذه المرة

باللغة الكوردية: «أنا مينا يا آزاد، مينا..».

لم يدعها تكمل كلامها، فيرد عليها بغضب واشمئزاز:

- مينا التي تركتها قبل ثلاثين عامًا، تقوم الآن بلا حياء وبرأسها الشيب وسط هذا الجمع بهز خلفيتها وخصرها.

رائحة كريهة تدفع الأطفال إلى التقيؤ، تقيؤ الأطفال يقطع رائحة الورود، وتذبل وتموت، أضواء القاعة وصفرة القمر تتغطيان تحت ستارة الظلام.

نوفمبر ٢٠٠٧

من الذي كشف جريمة القتل؟[1]

تطل نافذة المنزل الكبير على الشارع المزدحم المليء بالضجيج، ويقع سوق عادي مثل أي سوق في العالم إلى جانبه الأيمن، وعلى جانبه الأيسر يقع سوق طويل يسمى بسوق بائعي التحف، تتواجد في الصف الأول من الجانب الأيمن النساء فقط حيث يبعن متاعهن هناك، والجانب الآخر بطوله وعرضه إلى أن يصل أمام المنزل الكبير يعم بالرجال، كلا الجنسين ينادي على بضاعته بشاكلة مختلفة عن الآخر: أحجار أثرية ملونة، هويات، الكتب والقواميس النادرة والقديمة، نظارة مولوي، بابيون الجد، وضع على الأطفال أسعار حسب أعمارهم، من سنة واحدة إلى أربع سنوات كتب على تيشيرته بأنه يفيد للأعمال الممنوعة للحياة، من أربع إلى عشر سنوات يفيد عمل الصباغة لتحصيل المال، من عمر عشر سنوات إلى خمس عشرة سنة كتب عليه هذه الجميلة تفيد للممارسة الجنسية. أما النساء فكل منهن لابسات سراويل رجالية ويبعن كل شيء نسائي: حمالات صدرية، قمصان نوم، طقم أسنان صناعي للجدات، وبعضهن يبعن تلك الرقعة التي كانت تحملها منذ سنين كجواز شرف، كل شيء هناك قابل للبيع، حتى أنهم كانوا يقولون إنه شوهدت هناك عمامة الشيخ ولفافة الرأس الخاصة بالعم عزيز في محلة القزازين قد عرضت للبيع، والأمتعة الموجودة هنا كلها تحفية، والكلب الذي يقف بين السوقين يبيع متاعه بشكل غريب، وضع في رقبته صندوق بلاستيكي وكتب عليه الواحدة بدينار، وكل طفل يرى هذا المنظر العجيب يصر على شرائه ولا يتوقف عن البكاء إلا حينما يشترون له، وبهذه الطريقة تباع يوميًا أكبر عدد من النفاخات.

لم يسد هذا السوق المنظر المطل على النافذة فقط؛ بل يحاصر البيت من جهاته الأربع، وبسبب الضجيج الصاخب للسوق انعدمت الراحة في هذا المنزل، خاصة بعد أن يتخلص من صخب السوق ويصعد على سلالم المنزل، يرى أمامه تلك الغرفة التي في داخلها مظلة معلقة على حائطها وهناك جثة ملقاة على أرضيتها دون رقيب أو أنيس.

رغم أنه تعوّد على هذا الصخب والمنظر المؤلم، ويقضي معظم أوقاته بمشاهدته، أو لنقل يقف أمام النافذة وخياله معلق بغيمة أو أوراق الشجر والنباتات التي من حوله، كما لو أنه يريد بذلك نسيان ماضيه، ولكن أي ماضٍ وهو يحس بأن ذلك خداع للنفس، كما لو أن كل الحيطان والطبيعة تحمل ذكرياته. ويمطر باستمرار مع كل غيمة ممطرة في السماء وينهمر آخر نشيج الصيف بالدموع، لا أحد يعلم كم أن الرعد والفزع والمطر

والمظلة أخذت حيزًا كبيرًا من حياته وتفكيره. الغيمة تهزم ويبدأ هو أيضًا على أثرها، والمطر ينهمر فيبكي هو أيضًا.

البرق ينزل. فيقول: «ربما السماء تبكي لبعد الأرض عنها واحتلالها من قبل الإنسان وتكاد لا تبقى منها بقعة مكشوفة فترويها السماء... لم لا؟ فالإنسان يحب التملك أكثر من أي كائن آخر، وإلى أن يغتصبوا منا شيئًا ما؛ حينها نراجع أنفسنا ما إذا كنا مغتصبين أم لا، كلا... لا أعتقد أننا سنسأل حتى في ذلك الوقت، على الأقل كانوا سيهتمون بذلك خلال السنوات السابقة بما فعلوه بي، على الأقل كانوا يفكرون ولو لمرة واحدة أنهم اغتصبوا حياتي وكل شيء يخصني، وأخذوه إلى المجهول.. أعادوه إلى البداية، لم يقدروا أن يفعلوا شيئًا مثل الذي فعله الكلب، ماذا؟... بت أقول كلاما فجًا، ومن استطاع أن يفعل بقدر ما فعله الكلب، حتى يفعلوا هم كذلك؟» وفي هذه الأثناء كما لو أنه أحس بإثارة العاطفة، وبدأ ينظر إليه بعين ملؤها القلق ليطمئن أنه ما زال في السوق، أو على الأقل لا يؤذيه أحد، وكلما كان يراه من النافذة أنه في أمان، أبكم وعيناه مليئتان بالسؤال، وبالوناته الملونة تعلوه بمسافة متر؛ كان هذا المنظر يصور له كرستال رأس السنة. يدور بين المارة، بعضهم يجتنبونه، وبعضهم ينظر إليه بتعجب وحنان، فيأخذون من فمه خيط بالون ويضعون دينارًا في الصندوق المعلق على رقبته، وإلى أن يبتعد عنه يلتفت إليه عدد من المارة، وبعضهم ينظر إليه باشمئزاز ويضربون أطفالهم ويجرجرونهم وراءهم وهم يشتمون صاحبه، فكان يعود مكسور القلب إلى الأطفال الذين أعجبوا به فكان يثير إعجابهم أكثر بحركات جميلة وغريبة، وبهذه الطريقة كان لا يبيع يوميًا أقل من عشرين بالونًا «لا يحصل هؤلاء الأطفال المتعبون يوميًا عشرة دنانير، وهو قد وضع على عاتقه تحصيل معيشة المنزل، فلماذا إذن بيت أبي يؤنبونني دائما ويقولون لي «لمن تعيش إنسانة عقيمة مثلك، لا عندك طفل تجعلينه حجة، ولا ترك لكِ زوجكِ ميراثًا كبيرًا تهنئين في العيش به« إن إخلاص وجهد الكلب يجعلك تخجل، وربما يفهم من تقاطيع وجوههم لهذا يتعب نفسه إلى هذه الدرجة.

تقبع جثة هامدة تحت المظلة المعلقة في الغرفة الواقعة أمام الدرج، إنها جثة لا تتعفن، فقط ترى بالعين، ولا تمسك باليد أو تحرك، لا تدفن أو تقذف بعيدًا، ولا تصبح قديمة أو تنسى، إنها جثة هي وحدها تفهم ما يحدث من تغييرات على سيماها، والمظلة باقية هناك بشكل دائم، بيد أنه لا يبعد المظلة من مكانه، يمكن أن تبعد المظلة من مكانها وترمى، إلا أنه لا يفعل ذلك، لأن هناك ذكريات مرة تربطها بتلك الجثة، وكلما قالوا له كم من

سنين أخرى ستظل هذه المظلة المتربة معلقة هناك؟ فيرد هو ويقول: «إلى أن تكون هناك مظلة للراحة وتتعب هذه الجثة من الاحتجاج هناك» كل مرة كانت مخيلته تسحبه إلى حادثة ما، كان قد سجلها مع هذه الجثة، وتذكرت ذاك اليوم جيدًا حين جاء أبوها وأعادها عنوة إلى بيته، وكان يدمدم مع نفسه ويقول: «ليس لائقًا بنا أن تبقي وحيدة في منزل وفيه جثة ذكر» وكنت أتوسل وأقول: «توجد في هذا المنزل ستة أرامل كل واحدة منهن لديها عدد من الأطفال، والكلب أيضًا يعتني بي، لماذا إذن ليس بلائق».

قال أبي: «أتتكِ وكلبكِ البلاء، ما الذي تجدينه في هذا الشيطان، لتتشبثي في البقاء بهذا البيت، أنا متأكد أن هذا الشيطان والجني يتراءى على هيئة هذا الحيوان، انظروا إليه كيف يحملق بنا، ويكشر علينا بأنيابه حينما نتحدث عنه».

عندما أعادني أبي إلى بيته تبعنا، وحين علم والدي أنه ليس هناك من فائدة تجدي معي ومعه سكت، ولكنه ربط الكلب في داره بسياج الحديقة، وعندما قمنا في الصباح من النوم لم نجده هناك، لهذا لم أستطع الصبر ورغم كل تهديدات أبي لي لمعرفة سر تلك الجثة وعدم عودتي إلى هناك، إلا أنني عدت مباشرة الى بيتي، إلى كلبي ورفيقي الجثة. لم يكف جارنا إلى تلك اللحظة من غنائه الحزين، وقال: «عاد في الساعة الحادية عشرة مساء أمس ولم يصبح إلى الآن».

قمت كعادتي التي اعتدت عليها بتفقد السوق المزدحم من النافذة، رأيت من بعيد أن البالونات التي كانت باقية منذ البارحة ولم يبعها لأنه رأى أبي وعاد على أثره إلى البيت، قد أخذها اليوم إلى السوق وباع نصفها، وكانت عينه دائمًا على النافذة، وعندما رأى أنني فتحت النافذة؛ ببارقة سعادة قام بعرض ورقص جميل، وبدأ يجتهد أكثر في عمله، ولم يلبث طويلًا حتى باعها كلها وعاد مسرعًا إلى البيت، وقمت بإعداد عشرة بالونات أخرى.

وعاد هو بعد ساعة إلى السوق وكان يسعى للكسب بشكل أكثر راحة، وكأنما صار منذ ذلك اليوم مطمئنًا لمدى قيمته لدي، رغم أنه لا يلبث في البيت سوى ساعة واحدة ويعود إلى عمله، حتى أنه أيام الجُمع يذهب باكرًا إلى زيارة المقبرة، وحتى يستيقظ الناس من النوم، يعود هو إلى البيت، وقد تعلم ذلك من درس سابق، في يوم من الأيام حين كنت أهمّ بالذهاب إلى المقبرة جاء معي، وهناك اجتهد وتعب كثيرًا ليثبت بالونًا على القبر، فكان يتزحلق ويقع فكان يقوم من مكانه ويعيد الكرة مرة أخرى، بيد

أن أطفال المحلة أمطرونا بالحجارة، كاد ينكسر رأسي بسببه، ولولا تجمع الناس وإعجابهم بحركات الكلب ولو لم يبعدوا الأطفال، لكان هو الآن في عداد الموتى، أو على أقل تقدير لو لم تكن أنثى لقالوا إنها ضبطت مع امرأة، لذا فإنها الآن أصبحت تذهب إلى المقبرة في الصباح الباكر حين يكون الأطفال ما زالوا نائمين وتعود قبل استيقاظهم.

جثة ملقاة في الغرفة دون عناية، ومظلة معلقة على الحائط تسهر عليها، جثة مجهولة وغير معروفة ملقاة هناك بشكل دائم، ليست جثة لأحد، ورغم أن تلك الجثة لن تبعث أبدًا، إلا أنها في تغير دائم، لا يعرف أحد سر هذه المظلة وهذه الجثة غيرها، لهذا كان والدها يغضب دائمًا:

- لا تجنني يا فتاة، فعندما أنظر إلى بيتكِ كأنما أعيش في عالم آخر، ما هو سر المظلة والجثة والكلبة في هذا البيت؟

فتنظر إليه نظرة حائرة ولا تنطق ببنت شفة، وما الداعي أن يعرف والدها، المهم أنها هي تعرف ما المصيبة التي أصابتها، ها هي ذي لا تترك قبالة النافذة وتراقب الكلبة، لكي لا يضربها طفل بحجارة فيؤذيها، ولم يكن نسيان ذكرياتها الماضية شيئًا هينًا.

«أتذكر حين أفقت في المستشفى، كان الحديث الدائر عن الكلبة، كانوا يقولون إنني حين كنت في الغيبوبة منذ الصباح وإلى أن أفقت في العصر، كانت هي واقفة أمام باب المستشفى وبنَفَس ضعيف كانت تبكي بحرارة، الذي أثار إعجاب الناس هو بكاؤها، فهذه هي المرة الأولى التي يرون فيها كلبة تبكي، بيد أن ذلك لم يكن بالغريب لدي، صحيح أنني لم أر سابقًا كلبًا يبكي، ولكن حين جلب لنا (ميجر) هذه الكلبة كهدية، قال: «جلبناها من إحدى القرى، حيث لم يبقَ فيها شيء حي سوى هذه الكلبة، إلا أن لها حالة غريبة، فهي مهمومة دائمًا، همٌ غريب يبين عليها بشكل دائم، نحاول بكل جهدنا أن تتعود علينا دون جدوى، أرى أنها لا تفرح بمعية الغرباء لذلك سأهديها لكِ».

ونحن بدورنا سميناها (هة وشار) وكان أوميد له خبرة جيدة في تربية الحيوانات، لذلك أصبحت بعد فترة من الزمن على هذا الشكل، ولكنها تعلقت بأوميد كثيرًا، لدرجة كنت أظن أنها تغار مني، ولو قلت الحقيقة أنا أيضًا كنت أغار منها، وغالبًا كنت أقول لأوميد: «أنت تهتم بهة وشار أكثر مني». ولكن في ذلك اليوم الذي أصيب أوميد بالمرض من كثرة دورانها حوله ومسح رأسها على صدره ودمعت عيناها له، خجلت من نفسي ومنذ ذلك اليوم أعطيتها الحق بأن يعتنيا ببعضهما. لأنها كانت حزينة أكثر مني، وإلى أن قام أوميد من الفراش واستطاع أن يأكل، كانت هي ممتنعة عن

الطعام وكانت جالسة بجانبه ولم تذهب إلى خارج الغرفة، منذ ذلك اليوم تعودنا على بكائها ودموعها، إلا أنني لم أر بكاء حارًا كهذا من قبل. كانت حالة الإغماء التي أصابتني بسبب معرفتي لبقية الكارثة التي أصابتها، إلى أن قال لي الناس: لولا هة وشار لما علم أحد بما جرى لكِ.

في ذلك اليوم كنت مهندمة نفسي بشكل آخر وحسب ذوق مغاير، خاصة وأنني كنت أغير ثيابي أثناء الفطور ونتحدث عن كل الأشياء الغريبة التي مرت بنا طوال فترة ثلاث سنوات من العلاقة وسنة من الزواج، كان مقررًا أن نعد لبعضنا الحلويات والهدايا، لأنه بعد يومين سيكون عيد يوم زواجنا، ونحن في هذه الخيالات والذكريات وصلنا إلى ناصية الشارع، وعلى حافة الشارع وتحت مظلة واحدة كان المطر ينهمر علينا ويبللنا، كل ما أتذكره في تلك اللحظة ونحن في أحلى خيالاتنا أنه فجأة أعادتني فرقعة قوية إلى رشدي وكان أوميد ملقى بجانبي غارقًا في دمه، وبرؤيتي لهذا المنظر أغمي عليّ، ثم وجدت نفسي في المستشفى، وعرفت أننا أيضًا صرنا إحدى الحكايات الغريبة لذلك العصر والأوان، تلك الحكاية التي منذ أن تعينا في تلك القرية نأتي إلى تلك الناصية من الشارع للصعود إلى وسيلة نقل، ذلك اليوم كنا واقفين هناك، عندما كان يوجد على التلة التي أمامنا رجلان ملتحيان كانا قد راهنا على أن يجعلا من قطعة الحديد التي تعلو مظلتنا هدفًا لرصاص بندقيتيهما، المظلة التي كانت قد جعلت نفسها درعًا لنا من المطر وليس الرصاص، ولكن شاءت الأقدار أن تصيب الأيدي بالشلل والبنادق بالعمى، فهدفوا على رأس أوميد، وعندما ترى هة وشار هذا المنظر تلطخ نفسها في التراب المحيط به وبدمه مع بكاء شديد، بكاء سترويه الأجيال القادمة، فتهرع مسرعة إلى المدرسة وتجر سترة المدير نحو الكارثة، وقد قام المدير في البداية بضربها ليبعدها عنه وشتمني أوميد لأننا نربي شيئًا مثل هذا، كونه لا يتلاءم مع تقاليدنا وديننا، كما أن الأطفال أيضًا ثاروا ضدها وقام كل واحد بتعذيبها بشتى الطرق حتى أنهكوها، قام المدير بجرها معه بشكل ما ليدق الجرس ويبعد عنها الأطفال، وفي هذه الأثناء قامت الفتاة العانس التي تناهز الأربعين عامًا، ولم يرها أحد منذ عشرين سنة، حيث يروون عن أكلها ومعيشتها الأساطير، يقولون إنك حتى لو وضعت أذنك على بابها، فلن تسمع صوت أي شيء ولا تخرج هي إلى خارج غرفتها، بيد أن حارس المدرسة قال إنه بعد الثانية عشرة من منتصف الليل يسمع صوتها مع مجموعة من النساء يؤدين ذكرًا حزينًا، فسموه بالذكر الخالد، إلا أنه يقول أيضًا بأنه لم ير في أي ليلة من تلك الليالي، خروج أحد من تلك الغرفة.

إلا أنها في ذلك اليوم كانت قد خرجت، وكاد المدير من هول شعرها الأبيض وسيماها الأبيض وردائها الأبيض الناصع أن يغمى عليه، هرعت مسرعة وقالت اتبع هذا الكلب، هناك جثة في الطريق، ومسحت بيدها على عيني المدير، وبعد مسح العين بيد تلك الراهبة البيضاء، رأى أن الدم الذي لطخت هة وشار جسمها به، يتبخر ويصبح على بناية المدرسة بجثة مجهولة، وهكذا قامت هة وشار بكشف جريمة قتل أوميد وأنقذنا نحن الاثنين.

منذ ذلك اليوم أصبح ما يقوم به هة وشار الآن هو شغله الدائم، وهذه مظلتنا تلك، علقتها منذ ذلك اليوم على السقف ولا أبعدها عنه، وتشاهد دائمًا جثة تحتها، وكل يوم جثة مغايرة لسابقتها، بيد أن في كل يوم اثنين من الشهر والمناسبة السنوية لوفاته تصبح الجثة جثة أوميد.

الآن أصبحت غرفة انتظارنا هي غرفة الجثث، الجثث التي لا يمكن أخذها إلى سوق التحف لبيعها.

حجزت جثة الغرفة التي أمامي، جثة بلا رائحة، بلا لون، غير مرئية، وأنا أنظر من النافذة إلى سوق بائعي التحف، وأقول لآخر أيام الأسبوع: لا تخف من غسل وتلقين تلك الجثة، فإنها لا تتعفن، لأن الذين جعلوك فجر الالهة وقاتليه وأكابر الجميع هم متعفنون... متعفنون...

---

1 منحت هذه القصة الجائزة الأولى لمهرجان (آميتا) الذي نظم في إيطاليا عام ٢٠٠١.

مملكة الخِرَق

ترى لم هذه الشهقات المخنوقة تكفر للبكاء؟ لأمشي حافيًا على جسد هذا الدرج الجامد، الذي لم يعر اهتمامًا يومًا لاستياء الناس الواهنين، حتى تتساقط نظرات عينيّ، مثلما سدت سمفونيا البكاء أذنيّ الصماوين من بدايتهما إلى نهايتهما.. ولا يمكن إلا أفهمك... أفهمك، فنحن عانسات القدر نودع أساطير الدموع لورود القبلات... إلا أن هذه الدموع مختلفة، يبدو أنها اللحن الذي نظم على النوتات المسروقة، إذن من ماذا هي نادمة؟ فحُفَرُ درجات سلم منطقة السراب هذا، عرقلت رجليّ مائة مرة، فإلى أن أخطو خطوة واحدة، أترك ورائي عشر خطوات دامية.

«تمنح الدموع أيضًا حكمة الرحمة إلى تيارات الحقد» ما هذه الرحمة التي بهذا الصباح تعرفني في فراش عذريتي، بتشقق القدم، وقطع الزجاج الصغيرة لألعاب طفولتك، واقطع طريق الخيال بمحاذاة الحائط المليء بالأسرار، الحائط الذي كان مخبأ للكتابات المهاجرة، والحروف المتساقطة، التي تغني لك أغاني عالم الذكريات المرَّة، الحائط الذي كتب عليه تاريخ بلادك، فها هو ذا أمامي: قلب ورمح وسيف، (A.M.N) وكل الحروف الأخرى، وطبعات الأيدي بألوان أحمر، أصفر، أسود، أخضر... تاريخ الأيام والأشهر والسنين وقصائد بدون وزن ولا قافية، كلمات متقطعة، يحيا فلان ويسقط علان... أو فرصة جيدة من الآن فصاعدًا لن أبحث عن تعابير لدموعك، فنور هذه الكوَّة يجعل من الزاوية المليئة بالأشعار خلف رأسك مرآة لقراءة أسرار جواهر دموعكِ:

أنا مطمئن،

لن تبلل القبلات المنهمرة بعد الآن

خصلات شعري الحنطية

لأن وطن السراب العاري

قذفني في فم رسالة

وجعل عذريتي

قناعًا للآثام

وجعل بكارتي متفحمة.

سلكت دموعكِ قطار خدكِ، وشحوب وجهك مثل شمعة، تموُّع الانتحارات تسكب في الزاوية التي تكورت فيها وتجرعين في حضن السآمة مرارة اللحظات الشهوانية، أتعجب كيف أن شخصًا غير يانع مثلك يكون لديه هذا البطن الكبير، وهذه السحنة ليست بالغريبة عن حروفي،

عن انفاسي، إذن في أي مكان؟ كيف لا أعرف ولا أتذكر، عيون مغرورقة و متوسلة، يا لهذا القدر كلما جئت إلى هذا السجن، تصبح نفسي أسيرة مصطلحات الأحصنة الجامحة، فها هو مكتوب على صفحات الغرف التي بلا أبواب جملة تقول:

ملأ آكلو التفاح جعبتكِ بأرغفة الآثام، وأسروكِ في زوايا دكاكين الشهوة، وملأوا قلبكِ بالغرائز وبين ساقيكِ بالأشرار الصغار.. وأنتِ لم انعزالية هكذا؟ أرى وجهك مستنسخًا، لست واضحة لا أعرف أين أنتِ أيمكن أن تكون هي أيضًا كذلك؟ لأركز على تلك الصورة التي يحملها أرشيف إحساسي، لأرى هل أستطيع إيجاد رقم إطار صورتكِ؟ رغم أن النساء يثقون أكثر بشخص يفشون عنده أسرارهن، لتصب أنهار ذكرياتهن في بحر واحد وهو بدوره يدافع عنهن، حتى لو كنت حاكم أجنحة الملائكة، حتى لو صرت زخارفها، (لماذا؟ أين؟ كيف ومتى؟) اخرج وتلحف بلحاف هموم اخضر.. اخرج.. جعبتي مليئة بشكل خرجت منها أرجل الكلمات ورؤوس القصائد، ولم لا اسأل؟ اسأل أفضل!

- ألا تحسين بأننا نعرف بعضنا؟

- أنا حين.. حينما الأسماك - الأسماك؟ كنت تشبهين الماء ذلك المساء، وأنا بتلهفي لتجرع مائك، ملأت فراغ شباكي، وللحظة كنت أرفع يدي من غزل الكلمات المتروكة لأصابع الحمامات المحروقة وأتمعنك، تحمل كيسًا وتتوجه خطواتك صوب السوق الصاخب، تتفقد ثنايا العربات، وتنتشل أي سمكة مرمية وتضعها داخل الكيس، وتعود أدراجك إلى البيت بسحنة مائية وبسمة نجمية، إلى المساء الذي كنت مع صديقك المتسول هناك.. أمام باب غرفتي سيقانكم تترحم على رغيف خبز، عندما سألت عن سر تجميع الأسماك.. تفوهت به وقلت إن هذه العفونة تهدم سور الموت في بيتكم.. ولولا هذه فإن المنية تدخل بيتكم دون جواز سفر، فانهمرت عيناي، كنت أراكم مثل مرايا الصور ولم أكن أسمع شيئًا، وبعد أسبوع ضاعت حتى مرآتك في عيني، تعقبت أخبارك، إلى أن أذاع المتسول خبر مرضك وعنوانك، لهذا مع صديقتي التي تحضن هموم كل الفراشات في غرفتها التي تعيش فيها وحدها، وصلنا في ذلك المساء المحمر إلى عتبة بيتكم الجهنمي، تلك العتبة التي كانت يقطر منها الظلام وتخنقكم بالخوف، كان دخان كثيف يغطي أنوفنا وآذاننا، وكان هناك ضوء باهت يهتز في بعض الاحيان متراقصًا، وبعض المرات يصعد متجهًا إلى السقف، الذي كان عدد من الحمام البري نائمين فيه، ايه يا صديقي! إلى ذلك المساء لم أكن فاهمًا سر الظلام، الخطوات لفحتني بالظلام، إلى أن وصلت

إلى كوخكم المغطى بالخرق بدل الزجاج، كانت الخرق مربوطة بالباب والشباك وحتى الحيطان، أدخلت رأسي في هذا المكان الخرقي، المنظر الذي رأته عيناي، لم يترجمه قبل ذلك خيال أي فنان تشكيلي.

بعض الأطفال يغطون في نوم عميق فوق الخرق القديمة مشكلين علامة استفهام، وفي الوسط كان هناك رجل متجهم وصلابة الحجر تبين في عينيه وسيماء الخنزير في شعيرات رأسه ولحيته وصدره الخشنة، يحرق بالخرق ويتأوه من الكوخ ويزمجر على الظلام، واحد آخر من أفراد عائلة مملكة الخرق كانت امرأة مجنونة ذات عينين مطعجتين، ممتدة وطفل صغير يعضّ بأسنان الجوع متمسكًا بثديها المطعج الذابل، لم أكن مكملًا سؤالي بعد، أجابني على الفور:

- هذا المنحوس، يجعلني أتسول في المشارق والمغارب وينيمني جوعانًا.. أترين الدم.. إنه لرأسي. يذهب إلى الغرفة التي فيها محصول مجهودنا ويحرمه من ثغورنا.

وأنت، مرض عضال يلفك في زاوية من زوايا الكوخ، كنت أقبل همومك ملء صدري، بغزارة أمطار عينيّ كتبت قدر الضحكات، بمعصمي وأصابعي الذابلة هددت بفتح ذلك الباب الذي غطي بالخرق، الباب انفتح، لم أر سوى الفقر، لم أر شيئًا، فقطار الزيت وازدحام الحنطة كانا مختبئين عني.

غرفة مليئة بالذخيرة، مليئة بالاضطهاد وقساوة القلب، عار من حنان الأبوة، لذا فإن اللعنات تقاذفت من فمي، اللعنة على التاريخ، اللعنة على الأذرع المشمرة التي لا تصبح مظلات، اللعنة أيها الرسول المهزوم. رأيت طيرًا مكسور الجناح في أعالي جبال هيمالايا يجرد انكساراتي، لم نحكم على سماء، أو أرض، وجبالنا. آخ اللعنة على القتال، ففي وقت غير ملائم كانوا منهمكين في قتال بعضهم، ولم يكن الصباح قد باغتهم بعد؛ حينها علمت لماذا تنشب الحروب، وكانت يدي تؤشر بالتهديد على تلك النفس المعبودة، التي لم تتعلم إلى ذلك الحين سوى ألفباء الكر والفر، يفكر في أن لا يؤكلكم الأسماك المتعفنة، إلا أنه بعد عدة أيام كانت منطقتكم خالية من ظلالكم وجثثكم، وكنتم مترحلين، نحو السراب، نحو المجهول، فقط الآن أراك بهذا القدر العاري من القناع.

السليمانية، ١٠- ١٩٩٦

امرأة في ذاكرة قدح[2]

فصل الربيع فرش العالم بالورود، إلا في بيتها فإنه راحل، والوقت، هو وقت تساقط أوراق الخريف، الوحدة تعصر روحها وتذكرها بالأوقات التي كانت قد رحلت فيها عن مدينتها، وسكنت مع ابنتها في هذه المدينة.

كانت المرة الأولى التي تحس فيها بمسحها على رأس ابنتها، تصاب بالجفلة والقلق، تعيدها الحقيقة وذكريات مرّة إلى سنوات سابقة ومساء اعترافاتها.

تسأل كالي دائمًا:

- أمي لماذا سافر أبي مبكرًا ولم يعد؟

- يا ابنتي إنَّ أباكِ قد نسيكِ، لماذا تسألين عنه دائمًا؟

- من قال لكِ ذلك؟

- سألت الرب الحبيب!

- كيف؟

- أكتب رسالة للرب الحبيب كل يوم وأضعها تحت قصب طائرتي الورقية وأطيرها عاليًا، وحين أنزلها أرى أن الرسالة اختفت وأن الرب الحبيب قد تسلّمها.

تخدعها بجملة «حسنًا يا ابنتي» ودون إرادتها تجرها خطواتها إلى تحت السلالم حيث تخبئ الطائرة الورقية هناك، تنظر إليها فتخرج قطعة ورقية من تحت قصب الطائرة، وتقرأها بصعوبة حرفًا حرفًا، وكان قد كتب عليها: «يا إلهي قد سألتك ألف مرة أن يعود والدي مثل والد دشني ويجلب لي الكثير من الأشياء الجميلة».

وضعت قطعة ورقية أخرى تحت القصب الأيمن للطائرة، فتقرأها أيضًا بصعوبة شديدة: «يا إلهي لم يكن موت القطة الصغيرة ذنبي، لقد دحرجت قنينة الغاز فقط، ووقعت عليها، فلماذا لا تعيد لي والدي؟».

يعيدها شهيق عميق إلى اللحظة التي كانت تريد إجهاض نفسها دون جدوى، وكانت تتذكر كلام أختها حين كانت تقول لها: «الأفضل أن يبقى هذا سرًا في نفسكِ ولا يعرفه أحد، وخاصة زوجك، لأن الرجال دائمًا يعرفون أنفسهم على أنهم أذكى من نسائهم، ويعرفون نساءهم بأنهن شرفهم، وبه يتقرب أقاربهم إليهم، لهذا لا تضعي نفسكِ في شِباك تكونين فيه الصيد وليس الصياد».

آلام الأيام وإخفاء هذا السر الكبير، يعذبانها ويقلقانها كثيرًا، وكأنَّ إخفاء السر لديها يشبه إخفاء الليل من الخفاش، ويحتها أكثر الحديث

الذي تبادلاه ذلك المساء تحت شجرة التين:

- إذا أخفت المرأة أي مشكلة أو حديث عن زوجها، فإنه لن يأمن جانبها مرة ثانية ولن يحترمها.

- ولكن الرجل لا يحب كل ما تقوله المرأة، ولا يستطيع معالجة كل المشكلات.

- الإنسان أكبر من أي مشكلة.

كان هذا حافزًا مهمًا للبوح، خاصة وأن هذه القروية الأمية كانت تفك الخط بصعوبة جمة، كانت دائمًا مثل أهل قريتها معجبة كثيرًا بكلامه وتعليمه، لأنه الرجل الوحيد في قريتهم مستوى تعليمه واصل إلى درجة تعليم ممرض لذلك كانوا في القرية ينادونه بالدكتور.

- إذا كان الإنسان أكبر من أية مشكلة، فإن الدكتور خاصتها أكثر ثقافة من أي شخص تعرفه فلماذا إذن لا تبوح له، لماذا تتحمل الإهانة والخيانة والإساءة؟ «حتمًا إذا عرف بالأمر سيحترمني أكثر من الآن، عدا أنه سيعرف عاجلًا أم آجلًا، فلماذا لا أقول له بنفسي، أيقتلني على ذلك؟ فليقتلني، أراني أعذب نفسي أكثر، أليس هذا قتلًا أم ماذا؟ فأنا الآن أموت وأحيا في اليوم الواحد مئات المرات، الموت واحد، ومهما كانت نتائجه فهو أحسن من وضعي الحالي».

لا تعرف كم من الكلمات أباحت بها؛ فخرق تيار ألم فظيع خلف رأسها وتعالت صرخاتها عنان السماء وأظلمت نور عينيها، وعندما أفاقت رأت أن رأسها مضرج بالدماء وليس من حولها أحد من أقاربها، ورغم أنها كانت لديها أم وأخت، وكما كانت أختها تقول:

- أنتِ ليس لديك أحد يأخذ بثأرك، أو يدافع عنكِ.

ولكنها الآن أمام القاضي الذي هو مرجع حقوق كل الناس.

- الزواج والطلاق مسؤولية، هل أنت واثق أنك تريد الانفصال؟

- واثق جدًا، واثق أكثر من أنني أراك الآن بعيني.. وبالنسبة للتهمة التي توجهها لها، كيف تراني الآن؛ يجب أن يكون لك دليل أيضًا.

- أنا واثق جدًا، تلك الأمور لن تعطيك دليلًا واضحًا، لكي تراه الآن.

- .....

- إنها تستحق القتل ولكنني لن ألطخ يدي بقتل هذه الخائنة.

لم ينبس القاضي معها إلى ذلك الحين ببت شفة، ولكنه كان يتمعنها بتفحص سرًا، وهو لا يقول أحسنت ويبدأ معه بالشتائم، هذا الرجل يبدو أنه رجل متزن «حبذا لو كان كذلك أيضًا في قراراته» فجأة يفتح شفتيه ويقول بعض الكلام باللغة العربية التي تفهم منه فقط كلمة (المتهمة)

الكلمة التي كان البعثيون في زمن ما يستخدمونها لإبادة الكورد، الكل كان يعرف معناها، والآن مرة أخرى تصل إلى مسامعها بلغتهم، ولكنها لا تعرف لأي غرض.

يسألها:

- كيف تفعلين ذلك، ألا تعلمين أن ذلك يسمى ب (الخيانة الزوجية) وهناك عقوبة لها في القانون؟

- سيدي أنا لم أخن، سردت له كل شيء، وهو أيضًا..

- إنها تكذب يا سيدي القاضي، يبدو أنها كانت كذلك منذ البداية.

تمتلئ الغرفة بالضجيج، بالكلمات التي يستخدمها هو المثقف ولا تفهمها هي ولن تفهمها، بعض الأحيان كان يستخدم كلمات على سبيل السخرية، ويقول لها أن ترددها، وحين كانت تتثاقل على لسانها؛ تلفظها بالخطأ فكان يستهزأ بها، رأسها امتلأ بضحكاته وكلماته الثقيلة ولا تسمع سوى بكاءها واسترحاماتها.

- أيها القاضي أنت مثل أب مخلص وعادل وليس مثل أب الناس جميعًا، اجعل ضميرك حاكمًا.

- .....

- آلاف المرات غضبت وتركت البيت لكي ننفصل ويترك البيت ويبتعد من هناك.

- .....

- عشرات المرات سردت له مثل هذه الخيانات، لكي يدخل الشك في قلبه وينقذني من محنتي؛ كان يظن أنني أحكي له قصة.

- .....

- لم يكن الذنب ذنبي؛ كان يجلب معه شيئًا من صيدليته، يجعلني أشفه كل مرة، فكنت أفقد الوعي أو أوهن تمامًا.

- .....

- كنت أيضًا في حينها أخاف من مثل هذه الفضيحة، كنت خائفة من أن يتهمني بها دون أن أرتكب أي ذنب.

- .....

- علاوة علي ذلك، كان يجر عليّ سكينًا كبيرًا ويهددني: سأقتلك ثم أقول إنني رأيت منها شيئًا آثمًا فقتلتها على البغاء.

- .....

- لم لا أحلف، سأحلف مئات المرات.

- حتى لو حلفت سأطلقها لا محالة.

- فليطلقني؛ حينها سأتحرر من براثن وحشين، من أفعى برأسين؛ ولكن لا يلفقون التهم لي جزافًا، ويعترف أن يقول حقيقة نسب هذا الطفل!

- سيدي أنت تسمع بنفسك، ماذا تقول عن أبي وبماذا تتهمه، إنه أبي كيف تقول له ذلك، أتعرف ماذا يعني أبي؟

- ما دام الأمر آل إلى هذا الحد، سأفشي سرًا أكبر من ذلك، إنَّ طفلتي ذات الثمانية أشهر هي من حماي وليست من زوجي.

عندما تحلف بذلك، تضع يدها بقوة على القرآن لدرجة وكأنها تحكم ببراثنها على جلد قديم منحت عمرها الربيعي الجميل لرغباتها الخاصة.

قرأت جميع رسائل وطلبات كالي، وفيها كلها تطلب ذلك الأب الذي تنادي باسمه، لا تعرف أن الأب الحقيقي مع اسمها يأخذ السلسلة الثالثة ويجب أن ترسل رسائلها إلى المقبرة.

تنظر من النافذة إلى كالي، التي طيرت طائرتها الورقية عالية إلى السماء وكتبت بحروف كبيرة على أجنحتها «إلهي الحبيب، إذا لم تُعِد أبي هذا العيد إلينا، فلن أكون ابنته ولن أرسل بعد الآن أية رسائل لك».

---

2 منحت هذه القصة الجائزة الثانية لمهرجان (اميتا) ٢٠٠٢ الذي نظم سنويًا في إيطاليا.

أرقام الصور في دخان السجائر

أمرُّ عبر الشوارع نحو المستشفى، أراه من بعيد، بعد التنظيف والكنس؛ يذهب تحت شجرة «مة يبل» ويشعل سيجارة، عندما أمرّ من أمامه يخفي سيجارته خلف ظهره ويومئ برأسه احترامًا لي، ويبادلني ابتسامة. عندما أذهب إلى مستشفاي، أتوجه الى الشرفة وأراقبه من هناك فأرى أنه يكرر ذات التصرف مع كل امرأة تمرّ من أمامه.

ذكرني هذا الرجل بذلك الشاب الذي كنت أراه غالبًا في مقهى حيّنا، فعندما كان يرتشف نصف قهوته يذهب إلى الخارج فيدخن سيجارة ثم يعود ثانية ليكمل قهوته. في أحد الأيام قال: أريد أن تقولي لي بصراحة لماذا لم تقبلي صداقتي؟

قلت: لأنك تدخن.

فسأل: هل لديكِ حساسية تجاه السجائر؟

فأجبته: ليس فقط لدي حساسية جسدية للسجائر، بل لدي أيضًا حساسية عقلية ووجدانية.

قال: لم أفهم شيئًا، بيد أنني كلي آذانٌ صاغية ومركزٌ على سماعكِ، لو كنتِ تتلطفين وتوضحين لي قصدكِ؟

«نعم بالتأكيد» أجبته. «أنا الآن أسألك، كل مدخن يعرف أضرار التدخين على الصحة ومخاطره على الحياة، وكلنا نعرف أن المدخن تفوح منه دائمًا رائحة نتانة منفضة السجائر، حتى لو لم يكن يحس بذلك، أو كان له رأي آخر. أليس ذلك صحيحًا؟».

ضحك بصوت عالٍ «صحيحٌ جدًا».

«حسنًا» قلتها. «أنت الآن لست مخلصًا لروحك وحياتك وتهدرهما بهذا الشكل؛ فكيف أثق بأنك ستخلص لروحي وحياتي؟ أنت الذي لا تهتم بمنظرك لدى المقابل وتضجر نفسك بتلك الرائحة، لماذا إذن أثق بانك ستهتم بمنظري وأحاسيسي؟».

نكس رأسه نحو زاوية في الأرضية وسكت لبرهة، ثم قال بصوت هادئ وشهيق عميق: «أعتذر لأن تصرفاتي غير المسؤولة قطعت الأمل منكِ، يجب أن أعترف بأن هذه أول مرة أواجه مثل هذا السؤال في حياتي. قالوا لي فقط إن هذا مضر فلا تفعل ذلك، حتى حين كنت صغيرًا كان أبي رجلًا عسكريًا وأمي ربة بيت رياضياتية وكل شيء عندها بحساب، فلم يسألوني قط عن محاسبة نفسي، أو أن روحك وجسدك يحددان مسؤوليتك أيضًا تجاه شخص آخر، كانت أحاديثنا المعتادة على مائدة

الطعام هي: أهمية الحضور إلى مائدة الطعام في الأوقات المحددة، مواقيت النهوض من النوم، أوقات اللعب والذهاب إلى المدرسة».

فرك خلف رأسه بيده اليمنى، كمن يحوّل فكرة من عمق الإحساس إلى التعبير، بشفتين مقفلتين عرض ابتسامة، ثم عدل من قامته ونظر إليَّ وسألني: «هل أستطيع أن أطلب منكِ معروفًا».

فأجبته: «بالتأكيد، تفضل، أي شيء أستطيع تقديمه».

«من الآن فصاعدًا قررت ترك التدخين». كسر علبة السجائر في يده ورماها في سلة المهملات التي كانت على بعد خطوات منه. «تستطيعين مراقبتي، حتى لا أضعف وأعود إليها، أقسم لكِ أن لا تطول أكثر من أسبوعين، ومهمتكِ فقط أن ترسلي لي مسج يوميًا تحثينني أو تذكرينني بذلك».

«وهل تعاهد أن يكون هذا عهدًا صادقًا وألا تعود إلى هذه العادة بعد فترة؟» سألته، فعاهد بشكل صادق أن يكون هذا قرارًا حقيقيًا، فلم يدخن خلال الأسبوعين؛ فقلت له إن مهمتي انتهت عند هذا الحد، وبعد ستة أشهر هاتفني ودعاني لتناول فنجان قهوة معه بمعية صديقته، قالت لي تلك الفتاة إنها تشكرني على موقفي وإنه لو كان مدخنًا لما استطاعت العيش معه.

موقف هذين الشخصين أعاد بذاكرتي إلى حوار قاسٍ جرى إثر حديث مثل الحديث السابق، كنت أظن أن مدة أكثر من خمس عشرة سنة التي قضاها في المهجر، مثل أي شاب غربي كفيلة بأن تكون كلمة «اعذرني» كافية له لكي ينهي ذلك الحديث ويذهب راشدًا في طريقه، بيد أنه مثل أي رجل كوردي كان يصر على طلبه، ليس فقط لأنه متيم بي، بل لأنه كان يحس بأنه يخوض غمار حرب الأقطاب ويجب أن يكون في جانب القطب الرابح.

قلت له باستياء ودون مفر: «أيها المحترم، الأولى أن تنسحب بمجرد كلمة اعتذار، وليس كأنني في محكمة جنايات وأنت تسألني وتطلب مني مئات الأدلة والاجوبة لأوضح لِم لا أريدك. ولو كنا نسينا كل الذي قلناه، فأنت لن تكون مناسبًا لي لأنك مدخن، يجب أن تبحث عن شخص ينسجم مع صفاتك».

«أليس من العيب أن تتحدثي هكذا، فأنتِ مثقفة، فإذا كان المثقف يتحدث هكذا عن الصفات والتدخين والشرب، فماذا يقول الجاهل؟».

منذ ذلك الحين والحياة لم تعد جميلة في عيني؛ حيث كل قميء يستخدم كلمة مثقف، وكان يطلق المثقف على كل من هب ودب، كل من:

يلبس البنطال، ينظف أسنانه، فردتا جواربه من ذات اللون، حتى الذي يلبس النظارات، وحتى من كان يحمل حقيبة سوداء مليئة بمواد مخدرة، والذين كانوا يعتدون جنسيًا على النساء، ثم يجعلونها قصة، كانوا يطلقون عليهم اسم «المثقفون».

كانت كلمة المثقف هي أقذر كلمة سمعتها أو أريد أن تطلق عليّ.. مع ذلك فكرت أن أكتب رسالة إلى أحد الذين يعرفون بوحيد البوست موديرن، هو هكذا إذن، إذا أصبح المجتمع قسمين، قسمين غير أصيلين، راق ودان، على أساس الجنس، حتى عقلك الذي لا يقبل بملكيته لأحد، فعند الراقي يحاول كسب الاحتيال، وعند الداني يحاول الاستيلاء حتى على حصته ويعرف باسمهم؛ فماذا تنتظر إذن من سرد حكاية الحمامات وطيران الصقور بشكل شزر، كلا فالأحسن أن لا تضيع وقتك وتقول لأحدهم بطرف اللسان عن كتابته لشيء وانتهى.

أنظر من النافذة إلى الرجل الذي يدخن، لأراه هل ما زال يدخن سيجارته باستحياء، فأراه قد عاد مرة أخرى إلى التقاط الأوراق المتساقطة، أذهب إلى حاسوبي، الرسالة التي كنت قد قررت كتابتها، أبحث على الشاشة عن عنوانه، أراه يعرفنا بصورة جديدة له، مرة أخرى سحنة مصطنعة من التجهم والهموم، ينظر إلى المجهول ملتقطًا سيجارة في فمه، رسم دخانها خطًا مرتبكًا على خدوده المطعوجة.

مرات عديدة أكتب السطر الأول وأعود فأمسحه، أفتح ايملي وأغلقه، أقول لنفسي اقطعي الأمل منه أيضًا ولا تكتبي له شيئًا ثم أرجع عن كلامي، وفي الآخر كتبت له، أردت إثارة مسألة من يستطيع أن يكون نموذجًا للشباب، لأناس يحتاجون إلى أناس آخرين لكي يكونوا قدوة لهم، ولكنني الآن أريد أن أسأل: أي علوم سايكولوجية، اجتماعية، أو ثقافية أثبتت أن من يضحك دائمًا هو إنسان صحي؟ أي اختلاف تراه بين أناس يثيرون الهموم وأناس يصادقون الموت؟ آه نسيت، لن أقابلك، فلدي الأجوبة الصحيحة، لذا فاحمل الأجوبة لنفسك. أعرف أنه سيجعل رسالتي طعامًا للشطب، ويضع اسمي تحت المناقير الحادة لبعض حراس القلم.. الآن سأوصل مؤشر كومبيوتري إلى علامة أرسل.

أيار (مايو) ٢٠١٢، كندا

مملكة القِرَدَة

حين تصل لأول مرة إلى تلك الأرض، تستنشق نفسًا عميقًا ملء صدرك، ولكن يبدو أن الإنسان لا يعلم هل أن بكاءه من الفرح أم تراكمات الماضي، فحين تنقطع عن الوطن لمدة طويلة، بدل الابتسامة تجد نفسك تبكي بحرارة دون إرادتك.

كنت تريد أن تعوض في موطنك الأم المحترق ما كنت تطلق عليه ب «العمر الضائع»، في البداية تطلق خطواتك نحو العمارة التي تكاد تسمع صياح نساء فيها على بعد الشارع الواقع خلف المنزل الأبيض، على أساس أنهن يناقشن ويجادلن ويرفعن مشكلات نساء الكورد إلى مسامع العالم أجمع، ويطلقن على أنفسهن نقابة النساء.. في الوهلة الاولى توجست واقفة، تريدين ألا تدلفي، لا تصدقين أن عمل نساء يعرفن أنفسهن بأنهن قادة نساء المجتمع هو الصياح والزمجرة، إلا أنكِ تقولين في نفسكِ: الظاهر أن إساءة وقعت لامرأة وأن هذا الصراخ هو نتيجة حتمية لإفراغ شحنات الغضب لهؤلاء ناشطات حقوقنا. توصلكِ خطواتكِ إلى غرفة صغيرة، توجد فيها سوفتان اثنتان ذات مقعد واحد، مع منضدة أمام النافذة تجلس إليها امرأة سمينة سمراء لها شعر قصير، سلمت حينما دخلت؛ ورغم أنها ردت عليكِ بتأنف، إلا أن قلبكِ انشرح بالمرأة الجالسة على الكرسي، وقلت في نفسكِ ربما يكون حكم العمر. فأنتِ تناهزين العشرين ربيعًا وهي التي دخلت الخامسة وثلاثين عامًا ستجاوبكِ في هذا الزمن بهذا الشكل، بيد أنكِ فرحتِ للهجتها الكرميانية.

ثلاث نساء جالسات في الغرفة وكل منهن تغرد في وادٍ، نادرًا ما يفسحن المجال لإحداهن أن تكمل كلامها لتبدأ بالكلام واحدة أخرى، والسيدة الجالسة على الكرسي تنظر إلى يمينها وشمالها باستعلاء وتنثر رماد سيجارتها، بيد أنكِ لا تسحبين ذلك على نفسكِ وتحسبينها على غرور السفر والأنباء المفبركة التي ينشرها حزبها لها، لذلك تلتفتين إليها وتشرحين لها مشكلتكِ، وأنتِ ما زلت في وسط كلامك وتقولين يجب أن ينفذوا لك أعمالك ويساندوكِ، يساندوك في الوطن الذي لم تزرعي فيه أحلام طفولتكِ، حتى لا يطحنكِ قراصنة الوطن الوحوش. إلا ان السيدة المتأنفة تجهم وجهها أكثر وفي اللحظة تركت الغرفة وتركتكِ عند النساء الثلاث الجالسات في الغرفة. شيماء التي كنَّ يسمينها شيماء المُرحِّلة لم تقطع كلامها. وأنتِ أيضًا استمررتِ في حديثكِ ولكن مع قيامها خيالكِ تشبث بتنورتها القصيرة المنفوشة، ولم يكن ذلك بسبب عالم العمائم الذي

كنت تعيشين فيه، بل تذكرت كلمات شيماء الممثلة التي كانت تقول لكِ: السيدة الجالسة على الكرسي كانت تريد ترشيح نفسها وتصبح سياسية كبيرة باسم الشيماوات، وكانت الأم حبيبة صاحبة المنزل الأبيض تقول دائمًا: أفادكِ هذا الكرسي في شيء واحد، وهو أنه حوّلكِ من عظمتين إلى مربربة، ارفعي تنورتك أكثر فأنت تعرفين رجالنا الحشريين كيف يصوتون للنساء ويختارونهن، فتقول بابتسامة: «لا تخافي يا خالة حبيبة سأضمن ذلك، فلو كان الرأس سالمًا لتكن المؤخرة للسلطة». لا تشغلين نفسكِ بتلك الخيالات وتستمرين في كلامك للنساء الأخريات، تظنين أنه انفتح لك باب لتخرجي ما في قلبك من كلام كان محصورًا بسبب قراصنة الوطن خلال الأشهر المنصرمة. عندما تعود السيدة المتأنفة إلى غرفتها، تظهر على محياها علامات الغضب أكثر، حين تسمعك تقولين:

- لماذا لا تستطعن مساعدتي، قولوا للسيد (شين) أن يحترم قليلًا سنوات ترحُلنا وتشردنا ولا يهيننا بهذا الشكل، فنحن لم نرجع لكي نمنح شرفنا وجسدنا لقراصنة الوطن، بل عدنا للوطن كي يحمينا.

ترفع السيدة المتأنفة صوتها وتسألكِ:

- ألا تقولين لي ماذا تريدين الآن، من أرسلك حتى تلفّقي التهم لعضواتنا، يبدو أن «إطلاعات» بعثتك من سهول إيران، أو قد تكونين تابعة لتلك الجهة، حتى تبدين قلة الأدب تجاه السيد (شين).

- أنا لا أفهم هذا الكلام كما تفهمونه أنتم بشكل مختلف، فأنا أقول إما أن تتركونا نعيش بكرامتنا، أو تساعدونا للعودة لأن حياتنا باتت معدومة هنا بسبب قراصنة الوطن.

- ولم لا تعيشين، لم يأتِ أحد غيرك يرفع لنا مثل هذه الشكوى إلا إذا كنت تكذبين، كل واحد يستطيع حفظ كرامته، فاذهبي أنت أيضًا واحفظي كرامتكِ بنفسكِ.

- ولماذا أنتن جالسات هنا وتطلقن على أنفسكن المحافظات على كرامة الشيماوات، نحن نستطيع المحافظة على أنفسنا من الأناس العاديين؛ بيد أننا لا نستطيع ذلك أمام القراصنة المسؤولين.

- لقد طولت لسانكِ وقللت أدبكِ تجاه السيد (شين)، لن نسامحك لو فعلتِ ذلك تجاهنا.

- حسنًا أنا لدي رسالة أوصلنها لي إلى أمير البلاد.

- هذا ليس من شأننا، ثم ألا تستحين من نفسكِ، تريدين أن تشغلي وقته الذهبي وعقله المفعم بالإبداع ولو للحظة بأمورك الفجة، ألم يعد لديه عمل غيركِ؟

تتركين ذلك الركن الكارتوني وتعودين القهقرى منكسرة الخاطر إلى بيتك الجامد الخالي من الحيوية، تفكرين أن تسألي الناس لتعرفي أي من النساء أصيبت بذات مصيبتكِ لكي توحدن أصواتكن وتوصلنها إلى الرجل المهم لأمير المدينة، حتى يضع حدودًا وعلاجًا لتلك التصرفات السيئة المتفشية في الإقليم.

ثم تقولين لنفسكِ: كلا، الأفضل أن أصيخ السمع لأعرف لأي من النساء تلفق هذه المجموعة البهتان والتهم وتشهرن بها، حتى أذهب إليها لأنني متأكدة من أن مسؤولًا طلب منها بيع نفسها فرفضت، فأعدن معها ذات القوانة التي كررنها علي، وفضحنها وسط هذا الجمع الأحمق ووضعن عصابات للإشهار بسمعتها فقط لاتهامها والبهتان عليها.

* * *

لم يكن البحث عن تلك النساء اللاتي يتعرضن لهجمات التشهير بالحياء من قبل قراصنة الوطن عملًا صعبًا، لأنهم ينشرون هذا الفايروس على نساء المدينة، التي تقبل بذلك يجعلونها ملكة في ميدان الفروسية وأعمالهم الخيرية، والتي لا تقبل مثلكِ ومثل الشيماوات الأخريات يحتقرونها ويخرجونها من المدينة.

اليوم جئتِ إليّ بمعية شيماء المغنية، وشيماء الطباعة، وشيماء الممثلة، والخالة شيماء أم شوان وشيماء الصحفية. أنا شيماء داعية الحقوق لم أستطع استرداد حقوقي لا بالحق ولا بالكتابة ولا عن طريق الصحافة، بيد أنهن جئن إلي كي أسترد حقوقهن، جئن كي أوصل رسائلهن لأمير الولاية.

ولكي لا أقطع أملهن تجاه هذه الأرض المحروقة أكثر من ذلك، لن أقول شيئًا، إلا أن بحر قلبي امتلأ من عدم فهمهن لتلك الأمور البسيطة، فهن يعتقدن بكل عقولهن أن الذي يحدث، يكون بغنى عن موافقة أمير الولاية، ويظنون أنه لو وصلت إليه أصواتهن، فإن أعشاش الشيماوات تتغير من الجحيم إلى جنة الأمراء، الجنة التي يعد بها في خطبه ويلقي بها على مسامع الشيماوات الساذجات، أنتن متحمسات للأمر، وأنا أعرف جيدًا أن كل اندفاعكن لإصلاح أخطاء تلك الأرض المحروقة يجعلونها كفقاعات سطح الماء، إلا أنني مضطرة لسماعكن. لا يفهم الإنسان أمرًا ولا يتأثر به ولا يعرف تأثيراته على الناس حتى يحدث له الشيء ذاته، ولو لم توجعكن اليوم الامكن لما كنتن تصدقن الامي؟ بيد أنكن اليوم مجروحات لهذا تفهمن آلام جروحي، لذا، اليوم أقول لكن إن حلمكن باطل وتحقيقه محال.

كل واحدة منكن أحضرت صفحة أمامها بكل أمل، كي تكتب فيها باختصار رسالتها لأمير الولاية، حتى لا يتفاجأ أثناء قراءتها بما آل إليه

ممثلوه من تدنٍ للأخلاق والكرامة والشرف والفساد وسط الخلق ويصاب بصدمة يموت على أثرها وتبقى الولاية من دون أمير، أو على الأقل يخلق بحر الدم بسبب ثلة الاشخاص هذه، بدماء ثوار الأمس وأصحاب ملفات اليوم والبعثيين وجحاش الزمن الماضي، والكوادر البارزين لهذا اليوم الذين يستخفون بأمهات وأخوات سكان حلبجة والأنفال.

الخالة شيماء أم شوان التي كانت أكبرهن سنًا قد جمعتهن لكي يصبحن صوتًا واحدًا ويوصلن مشكلتهن وقبلهن جميعًا بادرت بالكلام:

- يا ابنتي لماذا أنت ساكتة، فنحن نتحدث ونناقش منذ قرابة ساعة، لماذا أنت واجمة هكذا؟ لماذا لا تجاوبيننا؟ قلنا إنه منذ مدة قربكِ إليه كابنته وتستطيعين أكثر من أي شخص آخر إيصال أصواتنا إليه، إلا أنكِ منذ أن جعلكِ ابنته أصبحت مغرورة، ودائمًا تشوش عينيكِ المجنونة مخيلتك وتشوش أفكاركِ.

- لا.. لا.. أيتها الخالة شيماء هذا ليس غرورًا، بل صدمة، فقد أوضحت هذه الحالة شيئًا مهمًا لي ولا أستطيع إلى الآن أن أتحدث عنه، لأنني أشفق على الناس ولا أريد أن أقطع عليهم الأمل تجاه الحالة المحلية التي يريقون الدماء لها منذ سنين طويلة، لقد فهمت أن حياتنا هي فقط كذبة كبيرة.

- إذن يا ابنتي؛ معروف عنك الشجاعة، لم لا تأخذين إليه كل تلك الأكاذيب ومشكلاتنا بدون أي خوف أو وجل؟ أنا متاكدة أنه لن يقبل منهم ذلك ويطردهم شر طردة، ألم يفعل ذلك لنا ان عيشنا في تلك الجبال معززين مرتاحي البال كل تلك السنين، الله أعلم، إنه لا يعرف بكل ما يحصل وإلا لن يقبل بذلك.

- ها ها ها ماذا قلتِ يا خالة شيماء؟

هنَّ ينظرن إلى ضحكتي بتعجب على أنها من باب الغرور، لهذا لن أجاوبهن، ولكنني إلى تلك اللحظة صامتة، ولا أريد أن أنقلهن من يأسهن هذا الى يأس آخر، ولكن آه من الخالة شيماء، لا تكف عن الكلام والظاهر أنها تريد اليوم أن ترسو على بر، لهذا سألت:

- يا ابنتي أي ضمير يقبل أن يسجن ابني على انتمائه الحزبي، على أساس أنه ينتمي إلى الجانب الآخر، لا يعرف العقل الكوردي غير الاختلافات والانتماء لهذا الصوب أو ذاك، عندما ذهبت إلى فلان ليحاول الإفراج عنه؛ هذا العمل لا يكون بهذا السهولة لأنها قضية كبيرة يجب أن أجد لها واسطة كبيرة...

- قلت له لماذا لم يفعل شيئًا كبيرًا ولم يكن بعثيا وعلى الأكثر فهو

كوردي وأنت أيضًا واسطة كبيرة، أتوسل إليك افعل شيئًا لكي يخرج من السجن، لا أملك سواه ورب العالمين وليس لدي في البيت ما يؤكل على العشاء.

- قال: حسنًا سأحاول الإفراج عنه ولكن مثل هذه الأمور يحتاج إلى همة منك.

- قلت: على عيني، سأذهب الآن وأقترض مالًا وأشتري لك ديكًا روميًا أو جديًا وأجلبه لك كهدية.

- فقال: وما هي مزّة الديك الرومي؟

- فقلت: أنا لا أفهم هذه الأمور، فقط أجلبه لك ثم كيف ستأكله فذلك من شأنك أنت.

- قال: لا.. لا. شيماء خاتون لا تبدي السذاجة، فمزتي مع التهام هذا الديك الرومي هي النوم معكِ.. وهذا شرط.

لم تستطع الخالة شيماء السيطرة على نفسها بعد تفوهه بالجملة الأخيرة فانفجرت باكية، وهي باكية، قالت:

- لم أجبن وبصقت في وجهه وخرجت، ومنذ ذلك اليوم فضحوني بشتى أنواع التلفيقات المشينة داخل المجتمع، وذهب هذا الشخص بنفسه إلى زيارة ابني في السجن، وقال له إن أمه منذ أن سجن، خليت الساحة لها وأصبحت أقذر بائعة هوى، وكأنما جنابه وابني يستطيعان منعي من البغاء لو أردت ذلك.

تنهمر دموعها بحرارة أكثر ثم تقول:

- الله ينتقم لي منهم، فقد فعلوا شيئًا كان ابني على أثره يقول أطلقوا سراحي يومًا واحدًا لأقتلها ثم اسجنوني بتهمتين. فأطلق سراحه، ليس يومًا واحدًا فقط بل شهرًا، وكان الله في عوني فأحد أفراد الشرطة حين يسمع بهذا الظلم يسرع إلي ويخبرني، ومنذ ذلك الحين وأنا مختبئة وقد جئت أيضًا إليكِ راجفة خائفة، يا ابنتي يبدو أن لديهم عصابة خاصة بالكذب وتلفيق التهم للنساء اللاتي لا يسلمن أنفسهن لهم...

- نعم يا خالة شيماء أصبت في هذا، فلديهم عصابة خاصة لفضح النساء العفيفات وضد الذين يقفون ضد سياستهم وأفكارهم فقط لإهانة أشخاص مثل هؤلاء وسط هذا المجتمع الأحمق، و ٩٠٪ منهم أعضاء في هذه العصابة، هذا عمل طبيعي بالنسبة لهم، فحين لا يبقى ضمير حي، لا يبقى للمبدأ وجود تجاه الوطن، وبالتالي يفشون الانحلال الاخلاقي داخل المجتمع.

ويستنفد الصبر عند شيماء المُرحَلة وتقول:

- يا إلهي ليس الوقت مناسبًا لمثل هذه الأحاديث، ألم تسمعن الخالة شيماء ماذا قالت، حتى هي طمعوا فيها، يا لصفاقتهم، يجب أن نفعل شيئًا، ثم تدير وجهها نحوي وتقول:

- لماذا تتحدثين معنا بلا مبالاة، فقد سمعت أنهم تعرضوا لك أكثر منا، وها أنتِ لا تفتحين فاكِ بكلمة، وعندما تقابلين أمير المدينة أو قابلتِه يبدو أنك لم تقولي له شيئًا، لهذا هم ما زالوا مستمرين على حالهم، أظن أنك الوحيدة التي حاولوا معها كثيرًا ولم تسلم نفسها لهم ودخلتِ في الجبهة المضادة، كل المدينة يعرفون ماذا يريدون منكِ، وأنتِ لم تتجرئي على أن تقولي له وتنهي مهزلتهم هذه..

دون إرادتي ضحكت ضحكة مهمومة:

- ماذا؟ أقول لمن؟ يبدو أنكن تحتجن إلى وقت طويل لتفهمن هذه الدوامة..

شيماء المغنية التي كانت ساكتة إلى ذلك الحين، بادرت بالكلام وقالت:

- حسنًا، أنا لو كتبت له قضيتي؛ أأذكر اسم الفتاة التي كانت متفقة مع الجنرال حتى يدخلاني إلى تلك المصيبة، أم أضحي وأسكت عنها كونها امرأة.

قالت الخالة شيماء:

- أي جنرال؟ وأي فتاة؟ عمَّ تتحدثين أنت يا ابنتي؟ ما لكِ وبنات الناس؟ نحن قلنا إننا تعرضنا جميعًا لإهانات أخلاقية من قبل قراصنة الوطن، وعلينا الآن أن نفضحهم.

شيماء المغنية: نعم، وأنا أيضًا أقول ذلك يا خالة شيماء، إلا أن قضيتي فيها فتاة أيضًا.

الخالة شيماء: ماذذذذذا؟!

شيماء المغنية: تعلمون أنني في بداية مشواري الفني، وكلكم تشهدون أن لي صوتًا جيدًا، إلا أنهم لا يقبلون، لا يريدون أن أعمل للفن، فجنرالات أمير المدينة يبعثون كل يوم أحد الذين منحوا رتبًا ودرجات وظيفية ليعملوا لهم كقوادين بينهم وبين الناس يبعثونه إليّ لأذهب معهم إلى بيوتهم وأغني لهم حتى الصباح، وذات ليلة ذهبت إكرامًا لسيدة أعرفها كانت عشيقة لأحدهم، لأنها جاءت بنفسها إليّ وطلبت مني الذهاب معها إلى بيت الجنرال بحجة أن لديهما مناسبة خاصة بهما، فقلت ما دام في الموضوع هذه السيدة لأذهب وأتقي شرهم... ولكن ماذا أروي لكم، أخجل أن أقول إنهما إلى أن أذّن الصباح فعلا كل شيء أمامي، وطلبوا مني أن لا أتوقف عن الغناء وعندما طلع الفجر أعادوني إلى البيت بسيارة وهددوني

بأن لا أفشي ما أقوله الآن لكم وإلا سيلفقون لي أقاويل فاضحة و... يا لهم من عديمي الأخلاق، لو أوصلت هذا إلى أمير المدينة كيف سيقبل منهم ذلك فهم لا يحترمون الإنسان ولا الفن.

رغم أن سؤالي يأخذ طابع السخرية لأنني كنت أعلم أن كل الأسئلة ستؤول في الآخر أمام الامير، لذلك سألت:

- وأنتِ ألم تذهبي مثل شيماء المُرحَّلة إلى سنتر الشيماوات ليدافعن عنكِ؟

فقالت شيماء الطباعة قبل أن تتفوه شيماء المغنية بكلمة:

- ماذا تقلن؟ أنا كنت أعمل لصالحهن، فلما رأين أن أحد جواسيسهم الذي يعمل خلسة كيساري وهو في الأصل جاسوس لهم يريد الاعتداء عليّ جنسيًا؛ أخبرتهن بذلك...

هنا؛ يغص حلقها بالبكاء ولا تستطيع إكمال كلامها، فقط تدير وجهها إليّ وتقول: أنتِ تعلمين ماذا فعلوا بي، فقد أطلعتكِ على ذلك.

«نعم أتذكر ذلك اليوم حين دخلت عليّ وأنتِ تبكين وتنوحين، قلتِ: أنا فتاة كوردية ولم يبق أحد أستنجد به ليساعدني، ولكن نهروني، لذلك جئت إليكِ لأعرفكِ بنفسي وأوضح لكِ مشكلتي».

«كانت قضيتكِ مختلفة عن قضية الجميع، لم تكوني مثل باقي الشيماوات تمضغين أحلامكِ الجميلة، فلقد وصلت إليكِ أيديهم القذرة».

- شيماء الطباعة: هل عرفتن الآن لماذا أنا مقهورة إلى هذه الدرجة، فقد كنت أعمل في سنتر الشيماوات، حين قالوا لي لم يعد لدينا عمل بكِ فأنت تعانين من مشكلات، لذلك طردوني، قالوا إن الشخص الذي غدر بكِ شخص مخلص لنا ولن نزعله من أجلكِ، وكان كذلك فعلًا؛ فأغلب المقالات التي كانت تنشر باسم بعضهن، كانت من كتابة هذا الشخص، لذلك كان لا بد أن أكون أنا الضحية وليس الشخص الكارتوني تابعهم.

- الخالة شيماء: إذن أنت تريدين أن تشتكي من أي منهما عند أمير المدينة؟

- شيماء الطباعة: من كلا الجانبين.

إلى تلك اللحظة كانت شيماء الصحافية ساكتة، كانت تتمعن الجميع مهمومة دون أن تنبس ببنت شفة، فقد كان كل شيء في ناظرها أصبح متساويًا.. كانت تعمل في مجلة، ثم تكتشف أن هذه المجلة تصدرها مؤسستهم الاستخباراتية، وبما أنها كانت عضوة لديهم لم تعر لذلك أهمية وظلت متواصلة في عملها، ثم علمت فجأة أن لقاءً صحافيًا نشر في المجلة باسمها وهي لم تجره ولا تعرف شيئًا عنه، وعندما تسأل رئيس

التحرير عنه، يقول: إنه شيء بسيط أردت أن ينشر باسمكِ، كتشجيع لدخول النساء إلى الميدان، وكتشجيع لكِ لأنكِ بدأتِ حديثًا، وأنت تعلمين مدى اهتمامنا بهذا الجانب، ولكن بعد يومين فقط حين تدخل على رئيس التحرير، تسمع صوته وهو يجري ذلك اللقاء، ويقول لشيماء ضاحكًا: لقد سمعتِ ذلك بنفسكِ، الآن لدي الدليل فلا تتدللي عليّ بعد الآن، إما أن تسلميني نفسكِ أو أطبع من هذا الدليل آلاف النسخ وأوزعها بين الناس.

- شيماء الصحافية: وما علاقتي بهذا فأنا لم أطلب منك أن تنشره باسمي.

- حسنًا لِنرَ من منا سيصدقه الناس، ولديك خياران، إما أن تنصاعي لرغباتي أو الفضيحة الأبدية... ولكن لتعلمي جيدًا لو فعلتِ حسبما أريد فإن ما تطلبينه سينفذ، وبعكسه فأنا أعاهدكِ أنكِ لن تصبحي شيئًا مدى الحياة...

بعد كل هذا تترك شيماء الصحافية ليس فقط الصحافة بل حتى وظيفتها كمدرّسة، وتصبح ربة بيت، إلا أن مؤسستها المشهورة في فضح الناس تضرب لها يوميًا وإلى الآن قوانات مختلفة لدرجة أنها تذكر ذلك الوسط دائمًا باسمها.

حين تسمع شيماء المُرحِّلة كلامهن تغرق في البكاء بحرارة أكثر وتقول: أكاد أنا أيضًا أميل إلى يأس شيماء داعية الحقوق، وأقول إننا لا داعي لأن نفكر أكثر في هذا الموضوع ونشغل أنفسنا بمحاولة إيصال الصوت إلى أمير المدينة، هذه حالتكن وهناك نساء أخريات ينتظرن منكن أن تنقذنهن، ومن يقوم بإنقاذكن؛ فبوجود القلم والعدل والثقافة والحكمة فتلك مصيبة أعظم، أنا التي طالبت بحقها وبحق خمس أخوات وأب هرم، فطالبوني بالمناصفة، فبقدر عطائهم لي يجب أن أرد لهم العطاء، إنهم بحاجة إليكن وليس أنتن.

- شيماء داعية الحقوق: لا، إنهم بحاجة فقط للمتطفلين والمجرمين وليس نحن، فكري في الأمر حين طالبتِ بحقوقك طلبوا منك ذلك، ولو نحن طالبنا بحقوق أمة كاملة، وهؤلاء لا يستطيعون فعل شيء لذا يهيجون عليهم عصابة هتك الأعراض، وعلى أقل تقدير يقتلونها بدافع غسل العار، ولو لزم الأمر يغتالوننا نحن أيضًا، حتى تقوم الجمعية بإعطائهم ذلك الحق.

- الخالة شيماء: يا فتيات لم تقلن لي لماذا لم تأتِ شيماء الممثلة؟

وبما أن همومهن كانت قد اقتلعتني من الجذور، قلت لها بضجر:

- يا خالة شيماء، آه من هؤلاء، كلما جاءت إحداهن تركتنا وتركت لنا

همومها.

- كلا يا خالة شيماء، فالمصائب لم تتركها وشأنها؛ أنت تعلمين أنها كانت تعمل في إحدى المؤسسات، ويومًا من الأيام يطلب منها مسؤول المؤسسة ما طلبه من الجميع، وهي تستقيل في اليوم ذاته، وتقول لهم إن هذه المؤسسات تفيدكم أنتم ولائقة لكم أن تجلسوا على هذه الكراسي... وحين تخرج يكتب على لوحة الإعلانات حتى يشاهده الزوار: اليوم طردنا إحداهن من المؤسسة لأسباب أخلاقية و... وتتحرك عصابة الهتك بالأعراض بعد ذلك مثلما تعلمون؛ لذلك ليس فقط تركت عملها بل حتى أنها تركت البلاد بأسرها.

تنظر شيماء الصحافية إليّ وتقول: يا شيماء الداعية للحقوق يبدو أن اليوم هو يوم هروب النساء، منذ شهرين وأمير المدينة جعلكِ ابنة له؛ لذا فنحن لا نجد أقرب منكِ إلينا كي توصل إليه هذه الحقائق دون مصلحة شخصية.

- ماذا أوصل له فأنتن تعشن في أحلام، وأنا متأكدة أنهم لن يفعلوا لكنّ شيئًا.

- الخالة شيماء: قولي لن أفعل لكنّ شيئًا وانتهى.

- آخ خ خ... يبدو أنكن لا تصدقونني، لذا فأنا مضطرة أن أفشي ما لم أقله من قبل؛ وذلك لأنني أحب هذه الأرض وهؤلاء الناس وحتى لا يقرر الجميع أن يتركها مثلي.

- شيماء المغنية: ماذاااا، لم لا تقولين إنكِ ستتركين أيضًا هذه القرافة.

- كلا، فهي التي تركتني.

- الخالة شيماء: ما الذي تقولينه يا ابنتي، نحن سعداء بكِ لأنكِ ستدافعين عنا.

- يا خالة أنا أيضًا أحتاج إلى من يدافع عني، كنت قد ظهرت حديثًا على الساحة، حين جاءني (سين) وقال لي إن (فا) المسؤول يريد التقرب مني، بعد أن كان جوابي بعكس رغباتهم؛ عدا الإهانات التي تشاهدونها في المدينة ورفعوا عليّ عدة مرات دعاوى كيدية، فقد كان صفيقًا لدرجة أنه عاد بعد كل هذا وقال لي مرة أخرى إن السيد (فا) يقول: بما أنها لا ترضى بنا، فلتجمع لنا المعلومات وتساعدنا، وبصراحة كنت حينها غير ناضجة عقليًا كما أسلفت، وكنت بادئة لتوّي، لهذا قلت: لا أستطيع أن أكتب لكم وأدافع عنكم.

وعندما علم بأنني لا أفهم مغزاه الخبيث، قال: لا. لا. لا نريد منك الكتابة، فلدينا آلاف الرجال يكتبون لنا ما نريده بقنينة شراب مغشوشة،

أنتِ جميلة وتقدرين بابتسامة أن تجمعي لنا المعلومات؛ حينها علمت أنهم يريدون مني أن أكون سبحة أيديهم ومومستهم الرسمية، كنت أظن أنه يجب أن أتعامل بالعقل والهدوء لمعالجة هذه القضية، فكنت أقول يبدو أنهم فهموا عن النساء بالخطأ، خاصة أن (سين) قال لي مسبقًا كما تفعل الخاتونة فلان والخاتونة علان؛ انظري كيف تنفذ رغباتهن لدينا، لذا قلت له بروية: من كان يحسب نفسه إنسانًا، يرفض طلبكم هذا، وهؤلاء لسن من الإنسان بشيء لهذا يعملن ذلك لكم، ثم إنني:

أولًا: لو كنت أريد الاقتراب من رجل أريد أن يكون ذلك بطريقة مشروعة، فما الداعي أن أوجع رأسي بالطرق الملتوية.

ثانيًا: لو كنت أريد علاقة عاطفية؛ سأتزوج ولا أضيع وقتي سدى، وفي الوقت الحالي كلاهما مرفوض لدي لأنني على أعتاب مشروع أقدس.

ثالثًا: عندما تريد امرأة كاتبة أو صحافية أو ممثلة أو مفكرة وداعية حقوق الدخول إلى مجالها؛ لأنهن يحسن بأن فيه قباحة يجب أن يجملوها، وهناك خطأ يجب عليهن تصحيحه، لماذا أنتم بهذا القدر من الصفاقة تريدون أن تكون مثل هذه الإنسانة مومسًا وقذرة.

رابعًا: ما تقوله أنت ليس من تقاليد الكورد، وحاول حزب البعث أن يزرع فينا مثل هذه القذارة، وهل أنتم مثل البعثيين أعداء لهذا الشعب أتريدون إفشاء مثل هذه الأخلاقيات بيننا؟

خامسًا: لو كانت امرأة مثقفة تعرف أنه سيكون هذا نتائج عملها وترضى بهذه الأفعال، ولا ترى أعمالها ونتاجاتها بل فقط يرى جسدها، فستذهب وتصبح ربة بيت وتجنب نفسها من وجع الرأس هذا وتقلع من الجذور ما تزرعونه أنتم داخل المجتمع.

سادسًا: ليس لي أي مصلحة لديكم حتى تتحدثوا معي بهذه الطريقة غير اللائقة، أنا عضوة في هذه الجمعية وهذه مدينتي ولكن أنتم مرَحَّلون وتقتاتون على مائدتها، لذلك إذا كنتم لا تحترمون أنفسكم فاحترموا المدينة.

سابعًا: نحن عائلة منكوبة حتى النخاع وذوو شهداء، ألا تخجلون وتقولون لأناس ضحوا بأنفسهم وسعادتهم إنه قليل؛ تعالوا الآن وبيعوا شرفكم لنا، أهذه هي الصفاقة التي علمتكم إياها الثورة الجديدة؟

كان حينها عقلي على هذه المستوى ويقدر أن يحلل هذا القدر فقط، إلا أنني الآن لدي آراء كثيرة حول مرضهم هذا، ولكنني لم أكن أعرف حينها أكثر من ذلك، أتذكر حينها كنت ساذجة لدرجة قلت: مرة أخرى لا تكلموني لهذا الغرض، لأنني أتقرب من رجل بعد حب كبير ومشروع زواج نهائي،

الذي ما زال الوقت مبكرًا لذلك، فإلى أن أكون نفسي لن أفكر في الزواج، حتى لا يقولوا إن المرأة الكوردية ضعيفة وتكون نفسها في ظل رجل...

عجبًا؛ قاطع كلامي وقال: أنتِ إنسانة غير عاقلة، لا تعرفين مصلحتكِ، لمن تتعبين نفسكِ؟ لو سمعتِ كلامنا كل ما ترغبين فيه في الدنيا سننفذه لكِ، وبعكسه، لن ندعكِ تصبحين شيئًا وسنضيق عليك في المدينة حتى تندمي على كلامكِ وهذا آخر قرار للسيد (فا).

والآن كلكن تعلمن وترين لم يبق باب محكمة إلا وأمسكوه، ولم تبق إهانة إلا وفعلوها معي عن طريق عصابتهم، ولم تبق أي طريقة إلا وسعوا إليها للقضاء عليّ و... أتعلمن، لا أعتقد أن هناك قلمًا أو لغة تستطيع التعبير عن صفاقة هؤلاء، لا أريد القول أكثر من ذلك، فقط أريد القول إنني أردت التقرب من أمير المدينة لأنهي مع هذه العصابة حرب السواتر هذه، لا للمحافظة على الوطن، بل للمحافظة على شرفنا.. وأبقى في هذه الأرض المحروقة ولا أتركها، ولكن مع الأسف...

- الخالة شيماء: ولكن لماذا يا ابنتي تقولين إنه لم يفعل لكِ شيئًا؟

- حبذا لو كان كذلك، فقد أخبرته عن غالبية هذه الأمور، وكانت كلها نفذت حسب تعليماته هو.

- شيماء المغنية: ماذنذا؟ إذن ما العمل؟

- شيماء داعية الحقوق: في الحقيقة إن روحي قد سافرت منذ مدة طويلة وإنني أحس بغربة قاتلة في مدينتي، لذلك سأهاجر للبحث عن وطن بديل.

- شيماء المُرحَّلة: وأنا مجبرة على العودة إلى أرض البعثيين وليس الكورد، ولكنْ قَسَمًا لن أكون مثلكن صامتات بل سأفضحهم أمام العالم ثم أهاجر.

- شيماء المغنية: لتحيا تلك الكورداية تي التي فعلوها لنا، وأنا منذ صباح غد سأذهب إلى المنطقة الأخرى علني أجد فيها أحدًا غيورًا وينقذني من هذه القرافة المليئة بالعصابات ومن هناك أخرج إلى الخارج.

- شيماء الصحافية: وأنا أيضًا قررت مثل أي فتاة صاحبة تقاليد، أن أتزوج أيًا كان يعود من الخارج حتى ولو كان أكبر مني ب ٥٠ سنة لينقذ شرفي من يد هذه العصابة... الآن عرفت أن هوس الفتيات بالخارج ليس فقط حكمته المال والتغيير.

- شيماء الممثلة: وأنا سأذهب إلى تركيا، وأطلب من الأمم المتحدة أن تنقذني من عصابات الوطن.

- وتبدأ الخالة شيماء بالبكاء وتقول: يا لي من وحيدة. ولكن يا بناتي

بذهابكن لن تعالج هذه المشكلات، فهذا من مصلحتهم أن لا يبقى في البلد شخص معارض، أنتن تذهبن فتزداد المشكلات.

- شيماء داعية الحقوق: مجتمع أحمق لهذه الدرجة يسوقونه على حسب هواهم، لن أعود إليه، إلا حين تستيقظ ضمائرهم ونعالج معهم تلك المشكلات، ربما يأتي يوم مثلما طردوا البعثيين، يطردون أيضًا عصابات الوطن.

- الخالة شيماء: وأين أذهب أنا؟

- شيماء داعية الحقوق: تعملين بنصيحتي تذهبين إلى قرية نائية بعيدة في كوردستان غير مأهولة حتى الآن، لا تعيش فيها سوى القردة، فتؤهلينها بنفسكِ، ذلك الحين، ستعيشين مع تلك القردة الحيوانية، وتتركين مملكة القردة وهذه القردة البشرية، حينها قارني وفاء تلك القردة بهذه القردة البشرية، سترين أنكِ لن تعودي أبدًا وربما سترسلين إلينا دعوة الى هناك.

***

الآن؛ منذ فترة وأنا تاركة مملكة القردة، فقط عن طريق الرسائل بين الشيماوات نعرف أخبار بعضنا البعض، تقول شيماء المُرحِّلة: إنني مقهورة لدرجة أنه لو صعدت اللحية والعمامة هذه المرة إلى دكة السلطة سأحلف بعلي وعمر، ولو عاد البعث سأهتف «بالروح بالدم».

وكانت الخالة شيماء وكل الشيماوات الأخريات يضحكن من بعيد على تلك العقول الموروثة لهذه القردة البشرية، وكلهن يسألنني، فكتبت لهن في آخر رسالة لي، أن السيدة السمينة على ذلك الكرسي، تتعقبني فإلى أي دولة أذهب تأتي إلى هناك بأمر من أمير المدينة، وليست هناك طريقة لا تجربها لكي يخلقوا لها قلمًا يكتب لها مثلما كانت في بلاد القردة لديها أقلام تكتب من أجلها، ولكن للأسف آخر أعمالها كان المشاركة في عملية قتل، وتطرد بلا حياء في بعض الدول، وأنتن تابعن أخبارها المفبركة كيف أنهم جعلوها في بلاد القردة ملكة الشيماوات واضحكن عليها بملء أشداقكن، وحين كان السيد (فا) يساعده السيد (عين) في غربتي كي يفعلوا بمساعدة البعثيين ما يحلو لهم، ولكن هيهات، فقد انكسرت أنوفهم، لهذا الآن يسحب ايميلي يوميًا رسائلهم المخزية وزز صغير يضحك ثم يمسحها.

اليوم سأتكلم مع صديقي المعارض، حتى هنا لم يبق من كلام نتكلمه غير قضايا مملكة القردة.

شيماء المغنية: والآن ماذا؟

شيماء داعية الحقوق: لا شيء، كتب عتاة أمير المدينة لإحدى صديقاتي: إذا لم تمدحينا، نخلق لكِ ملفًا وفولدرًا، وحينها قولي مثلما يحلو لكِ إنه ليس أنتِ من فعل ذلك.

الخالة شيماء: الخزي لهم، كلهم لا يساوون قردًا واحدًا من منطقتي المقفرة، هذه القردة تحميني هنا حتى من الدببة، إلا أنهم...

٤ آذار (مارس) ٢٠٠٤، كندا

يشعل بخور الخلود

هو:

فتاة مفعمة بالحيوية والنشاط، خبيرة في اللغة الإنكليزية وتتحدث بها بطلاقة..

منذ تلك الصباحات ملأوا كل شبر من هذه الأرض، يكادون يصبحون نقوشًا على أثواب النوم. هو يعمل في تلك المنظمات ولشدة تعلّقه بهم وبلغتهم، يتحدث مع أمه أحيانًا باللغة الإنكليزية، التي كل معرفتها بهذه اللغة بضع كلمات تعلمتها في السادس الابتدائي وتكاد تتذكر ثلاث أو أربع كلمات منها، فكانت تشهق بعمق وتحرك رأسها جيئة وذهابًا وتودع تفكيرها إلى السكوت.

لم يكن يعرف الوقت الذي يتوجه فيه إلى المنظمة، وكانت أمه تترك البيت من بعده. وكانت هناك امرأة ثقبت حائط بيتها لتراقب منه أو من على سطح المنزل كل أهل المحلة وكانت لحوحة وكثيرة الكلام، كانت تعرف أخبار سكان المنطقة والأشخاص والأحزاب السياسية والمحلات الأخرى، بل حتى أنها كانت تعرف ما بداخل أي كيس يحمله أي شخص من سكان المنطقة وكم عدد الفاكهة أو الأشياء التي بداخله وكل التفاصيل الأخرى.

كانت هذه إحدى العادات التي كانت شائعة في ذلك الوقت، ورغم أن النساء كن يتابعن آخر الموديلات الغربية للملابس كي يلبسنها، إلا أن صوت التنفر والاحتجاج ضد تلك العادة كان يسمع من الناس، حتى أن مذيعة الأخبار الصحافية أيضًا كانت بدل إلقاء تحية الصباح عليه تسأله: «إلى أين تذهب.. خيرًا؟».

وهو كان لشدة استيائه من تلك العادة المتبعة، يجيب بعض الأحيان ويقول: «من الآن فصاعدًا سأعلق لافتة على صدري وأكتب عليها أذهب إلى الدوام حتى لا تتكرري أنت سؤالك».

ذلك الصباح كان مختلفًا عن الصباحات الأخرى، في البداية دققت فيه بطرف عينها نظرات ذات مغزى، ثم سألته:

«أقول، يبدو أن أمك أيضًا تعينت، فهي ما إن تخرج أنتَ حتى تخرج هي أيضًا وراءك وتترك البيت».

رغم أن هذا الكلام حيّره للحظة، وجعله يتكلم في نفسه: «نحن نعيش بسذاجة ونموت كالرهبان» إلا أن كلامها لم يكن له تأثير على حبه لأمه ولم يشكل أي شك لديه، لأنه كان ما يزال في بطن أمه؛ استشهد أبوه في

إحدى المعارك، فكانت أمه تعرف كأرملة عفيفة ذي مكانة رفيعة، وكل من كان يحاول فتح موضوع الزواج معها، كانت تعرف مسبقًا غرضه فتجاوبه: «لقد أردت أن أعيش وأموت في هذه الحياة لشخص واحد فقط، وقد عشت له وسأموت له».

نادرًا ما كان يعير اهتمامًا للأشياء التي كانت موضوعًا على مستوى الناس الجهلاء، لهذا لم يكن يهتم بتلك الأقاويل، أولًا: لأن هذه المرأة مكان ثقة، ثانيًا: لأن لديه دوامًا من الثامنة والنصف صباحًا لغاية السادسة مساءً، ولم يكن يعرف ما يجري في البيت، ولهذا لم يكن يهتم بالكثير من الأمور المنزلية ويرى نفسه خارج ذلك النطاق. بيد أنه كان يحس بأن أمه تراقبه أكثر من ذي قبل، وكلما كان يتصل، تحاول الاقتراب أكثر، علاوة على ذلك كانت كئيبة أكثر من قبل، حتى أن ذلك خلق لديه إحساسًا لم يكن يعرف ما هو وكيف يعبر عنه.

هل هو شك؟ خوف؟ سؤال؟ لا يعرف لأن معادلة نفسية قاسية تعصره، ومصدر هذه المعادلة نابعٌ من هناك؛ حيث انقضى عامان على مدة عمله في تلك المنظمة، وبعد الخمسة أشهر الأولى من تعيينه، تتشكل علاقة صداقة قوية بينه وبين نائب مسؤول المنظمة، ولو كان بحسب قانون المنظمة فكان بقي له شهر واحد على العمل هناك حين عقدوا العمل فيها، لأنهم كانوا يعملون بحسب عقد ستة أشهر، إلا أنه حتى تعيينه لم يكن مثل الآخرين، لغاية الآن يتذكر كيف أنه كان هناك أناس يأتون إلى المنظمة ومعهم شهادات بكالوريوس والماجستير والدكتوراه ولم يُقبلوا فيها، ولكن حين راى أدوارد الأمريكي الأصل ونائب مسؤول المنظمة، وسامته الشرقية الفريدة، عدا عن بعض الأسئلة الشخصية لم يطلب منه أي شهادة وقبل فيها بشهادة المعهد، في حين شرط القبول ألا تكون شهادة الموظف أقل من الجامعية.

وحين تشابك إحساسه بذلك الإحساس الغربي، بدأ إحساسه يرقص بلا مبالاة ولم يعد لديه ذلك الخجل القديم، ليقبلوا بعضهم البعض مع الشباب الأجانب بدل تحية الصباح، وهذا خارج نطاق تلك الدائرة، حتى روايته مثل حلم يمنع روايته، لهذا كل تلك الساعات من العمل لم يكن يحس بالتعب لأنه كان متعلقًا روحيًا بمنظمته وعمله.

كان كذلك فعلًا، فقد كان يعود ويرسل التحايا إلى غسق الغروب بابتهاج، وكالعادة حين كان يصل إلى البيت يصبح نديمًا للهاتف، بيد أنه لم يكن يتحدث فيه باللغة الكوردية، بل بعد عودته يتحول التلفون إلى اللغة الأجنبية، مما غرس في نفس أمه القلق، فظنت أنه قد يكون في خطر

ويخابر شخصًا يساعده فيقول له إنه وصل بالسلامة إلى البيت، ولما لم تلحظ شيئًا من هذا القبيل، شكّت في أنه على علاقة بإحداهن ويخابرها يوميًا ليطمئنها لعودته إلى البيت سالمًا وينتظر تلفونها.

هي:

بعد تناول الطعام كانت تذهب مباشرة إلى غرفتها وتهرع إلى الكومبيوتر الذي اشترته بحماسة منذ أن أصبحت على علاقة بذلك الشاب الأجنبي، وقررت تدوين جميع أحاديثهما ولقاءاتهما وأحاسيسهما وتجمعها.

كانت تدوّن هذه الذكريات في كل مرة باللغة الإنكليزية، وبعد أن كانت تكتب تلك الأسطر، كان يداهمها قلق ثقيل خوفًا من عدم جدوى هذه العلاقة فتفقد ذلك الاندفاع. غالبًا كانت تغط في النوم إثر بكاء حاد، وهكذا كانت سعادة النهار تمحوها دموع الليل، وهذه الانفعالات أصبحت مشكلة لأمها التي انشغل فكرها وأحاسيسها بهموم وأفراح ابنتها الوحيدة، كثيرًا ما كانت بجملٍ مليئة بالتوسل تسألها:

- يا ابنتي هذا العمل يأخذ من وقتكِ الكثير ويتعبكِ، التعب والإرهاق يبدوان دائمًا على محياكِ اتركيه أفضل.

- ماذا تقولين يا أماه؟

كنت أتمنى أن يكون دوامنا بالليل أيضًا حتى لا يكون لدي وقت للتفكير.

- بماذا تفكرين يا ابنتي؟

هذه الجملة الأخيرة كانت تجعلها تندم على البوح بتلك الحقيقة وتشنجها إلى حد ما، فترد بشيء من الغضب:

- بماذا أفكر غير هموم الدنيا؟

كان هذا الغضب يسكت والدتها عن طرح الأسئلة، كانت تبين نفسها أن همومها هي حول الأشياء العامة، أما في داخلها فكانت تعيش مع همومها وانفعالاتها وتلفوناتها التي كانت شغلها الشاغل، ولكن بما أنها كانت قد قرأت حتى الصف السادس الابتدائي، حيث كان ذلك من ضمن همومها؛ إذ كان يكتب باللغة الإنكليزية التي لم تكن تفهم منها شيئًا، بيد أنها بسبب تلك الجملة التي كانت محفورة في ذاكرة طفولتها التي لم تكن تمحى، كانت تعرف أن هناك مسألة حب في الموضوع، وكانت هذه الجملة هي I love you، فهي الكلمات التي كانت في سن المراهقة ليست فقط كتابتها بشكل مباشر كانت تبهج القلب، بل كانت هي وصديقاتها يخفن التقرب والتحدث مع الجنس الآخر لأن ذلك يثير المخاوف؛ لذلك فإن أحلامهن كانت تطير إلى الفضاء البعيد، إلى الأشخاص والأماكن التي محبتهم لا

تضر شيئًا، مما جعل مشاهير الفنانين فارس أحلامهن، ويلصقن صورة أو اثنتين في الغلاف الداخلي لكتبهن، ويعوضن بذلك تلك المقاطعة، ولا يعرف أحد بشعورهن الدفين. تلك الجملة في اللغة الإنكليزية كانت مغروزة في ذاكرتها قبل قراءة أي موضوع، كن يكتبنها على أي حافة بخط صغير؛ فكانت تلك أول كلمة لها وأول نديم وحبيب، لهذا ما كانت تنساها أو تضجر منها حتى في ذلك العمر.

هو:

دائمًا كان تحليل نفسيتها يضرب بأجنحة تفكيرها إلى خارج محلتها، استنفرت كل إمكانياتها لتفهم قضيتها وتجد لها حلًا دون أن تجرحها، خاصة عندما رأت أنها ليست مثل السابق تأتي من الخارج فتتبادر بتقبيل وجنتيها وتروي لها أثناء الأكل الكثير من الأحداث التي رأتها أو سمعتها، فالآن حتى لو سألتها لا تروي لها شيئًا، وهي ضجرة من أمها وتبدو مستاءة أكثر من قبل، ولا تذهب مثل السابق إلى الحاسوب وتكتب مثل هوسها السابق بضع جمل، وكأن تفكيرًا عميقًا يهدم بشكل دائم أعماقها ونظرات أمها المليئة بالشك وأسئلتها تعمق من جروحها أكثر.

«يجب أن أجد حلًا وأفهم مشكلتها، فالحب والخلود متساويان، القلوب الكبيرة لا تموت؛ والقلوب المليئة بالحب كبيرة... يجب أن أختار الخلود، وهي كذلك فعلًا، فقلبُ الأم كبير وخالد، الخلود يحتاج إلى التضحية والكبر يحتاج إلى التسامح، وأنا أحتاج إلى طاقة الاثنين معًا».

كان ذلك هو القرار النهائي لأمها، إلا أنها كانت ممسكة بقطب آخر من العالم.

«بما أنكم تحابون؛ فهو الحب الذي يصنع المعجزات ويمنح التشرد والخلود والعطاء، يبدو أنكِ تريدين أن تلبسي الخلود على قامتكِ... ولكن كيف؟... في هذا العمر لأمي وفي هذا المجتمع... كلا... لا يمكن ذلك بتاتًا... فهذا خروج عن أرض الحب وتلاعب بالنار».

كانا يكابدان لهموم بعضهما لدرجة أنهما خرجا عن أساس محنتهما، منذ ذلك اليوم بدأ همه يكبر تمامًا، حينما اقتربت منه تلك المرأة المعروفة بالمرأة المؤسسة الاخبارية، ستلايت، والكثير من الألقاب الأخرى وبدل أن تسأله السؤال المتوقع قالت هذه المرة:

- ماذا، يبدو أن دوام أمك أصبح بشفتين؟ إيه.. لم تعد الحال كما في السابق فضيوفكم كثرت وسيارات كثيرة تقف أمام باب بيتكم.

قالت هذه الجمل بشكل مبطن جدًا، لدرجة أنه لم يستطع أن ينبس ببت شفة، فقط تركها وبات منذ ذلك اليوم يتلوى من الألم، في البداية كان

التعب قد أنهكه، ولم يعد يعرف ماذا يفعل، ثم في الآخر بحجة الذهاب إلى العمل خرج من البيت، وفي صالون التجميل الذي يقع قبالة بيتهم وتعمل فيه فتاة زميلة دراسته سهلت له الأمر واختبأ هناك حتى يراقب البيت، فتبين أنها بعد نصف ساعة من خروجه من البيت تأتي سيارة إليها فتأخذها.

هي:

حتى أحلام اليقظة خاصته أصبحت مليئة بالكوارث والصور القبيحة، وكان يقارن كل تلك الأسماء والألقاب والفضائح التي رست في داخله مع اسمه واسم أمه وعائلته، فكان يثقل الهم كاهله أكثر، وعندما علم أن سيارة الأجرة ذاتها تعيدها إلى البيت في الثانية عشرة ظهرًا، وتأتي أيضًا في الثالثة عصرًا لتأخذها وتعيدها في الساعة الخامسة مساءً.

لم تصبه هذه الأفعال الأخيرة بالشك فقط بل أيضًا أصابته بالاضطهاد، بعد صراع نفسي طويل لجأ إلى زميل له في العمل كان لديه سيارة وحددا يومًا وتبعاها بسيارته، من بعيد، حتى توقفت سيارة الأجرة عند مدخل دائرة كبيرة وعالية، فتوقفا عند شجرة كبيرة أمام البناية وبدآ يراقبان بدقة.

نزل السائق مسرعًا ليفتح لها الباب، وهي بدلالٍ كأنما تنتظر منذ زمن أن يدللها رجل نزلت من السيارة، لفّت شالها الأسود حول كتفيها ورقبتها، وتحت نقوش شالها الشفافة كان لون بشرة ذراعها الأبيض يشكل زخرفة بلونين جميلين، وبخطى دقيقة دلفت إلى داخل المبنى، ومن هناك تدخل إلى ممر ضيق ومظلم ثم تصعد السلالم، تلك السلالم كانت مظلمة وضيقة وملتوية لدرجة أنها كانت تذكرك بأفلام الرعب، ومنظر الغرفة المظلمة كان يوحي بعدم الاطمئنان.

كانت ترفع خطواتها على تلك السلالم أرق من ذي قبل، وصوت حذائها ذي الكعب العالي المسماري جعل الحياة تدبّ في ذلك الرواق المظلم، ويترك صدى طويلًا وتترك خطواتها السلالم بهدوء، وهما أيضًا كان ينسحبان وراءها بهدوء. كانت هذه هي المرة الأولى التي يتمعن فيها جسدها المليء بالجمال ووجهها الموحي بالهموم، كانت تشبه سمكة كبيرة متعطشة للمياه.

قطع هذا الجسد المتعب والمحروم من الدلال ثلاثة طوابق، وفي الطابق الرابع دخلت في البداية إلى غرفة صغيرة وأغلقت من ورائها الباب، كان هناك سجل موضوع على الطاولة الموضوعة في الجانب الأيمن للغرفة، فتحته وكتبت فيه شيئًا، كانا يظنان أنها كتبت اسمها، ثم وقعت

عليه.

كان ينظر من فتحة مفتاح الباب، بعد أن وقّعت، اضطجعت على سرير وضع في الجانب الأيسر من الغرفة وفتحت بسرعة أزرار قميصها كلها، وصدرها الذي ما زال عارمًا في حمالة صدرها الحمراء تشبه مصباحًا أحمر أشعل في غرفة مظلمة، فنال منه هذا المنظر بشكل أكبر، كان ينتظر أن يرى ظل رجل يقف لها في ركن من الغرفة، هو لا يراه من هذه الزاوية، فيلتصق بها ويطبق عليها تمامًا... وعندما تحرر تفكيره من هذا الخيال؛ رأى أنها منشغلة بشكل طبيعي بذلك الحزام الطبي الذي كانت تربطه على ظهرها لتخفيف الألم، فقد كان مفتوحًا وهي قد انشغلت بشده من جديد، ثم بطرف أصابعها هزت خصلات شعرها، وأخرجت من أحد الأدراج التي كانت مثبتة على جانب الحائط سجلًا من فئة المائة صفحة، كان مكتوبًا على الجانب الأيسر للسجل الإنكليزية، وعلى جانبه الأيمن كان مكتوبًا كومبيوتر، ثم توجهت إلى الغرفة التي كان مكتوبًا على سبورة فيها بخط وردي: النصيحة (...) لتعليم الكومبيوتر وكل اللغات الأجنبية.

١٩٩٨

التفاحة التي أكلتها فاتهمتني حتى والدتي بالإثم

ها أنا أعيش هنا، ولو أنني الآن فقط أيقنت أن في زمن التكنولوجيا والتقدم هذا، لن تضع أي فتاة أية قيمة لهذا ال «خوف» الذي يغطيني بالكامل، فها هن بدون أي خوف لا يحرمن أنفسهن من لذات الدنيا ويعلنونها بكل شجاعة، ويحكونها لأمهاتهن، وهنَّ أيضًا يستمعن لهن بعقلية الكبار وينظرن إليهن.

ولكنها لم تصدق ذلك، قالت: «لا يوجد شيء مثل هذا في زمن الأشكال المتكسرة، هنا وهناك لا يتشابهان، فهناك: الخوف هو من الكلمة نفسها التي هي (خوف)».

أردت هذه المرة أن ألملم كلماتي وأقول بسرعة أكثر، أين؟ ولكنه لم يعطني مجالًا ولاحق تلك بكلمات أخرى:

- هناك يضعون قيمة المرء لأفعاله الآنية، هناك المنفتح وهنا المنغلق يعطي الحكمة بتجربة المقول.

أردت أن يعطي مجالًا لعقلي، وأسأل عن هناك؛ حتى أقارن هذه المعادلة بالكتابات المستهلكة على الجدران، إلا أنه بادر مجددًا وقال:

- لهذا، الأمهات يصخن السمع ولا يجعلنهن نادمات على تلك اللحظات، يكتسبن التجربة من حكم الحياة، حتى ولو كانت تجارب فاشلة، دون أن يتشبثن بالأمور الآنية، ويقرأن المستقبل على سطوح المرايا النظيفة الخالية من الشوائب دون المصطلحات المصطنعة والمفزعة.

جملته الأخيرة أصابتني بالتوجس، تيار بارد دغدغ ظهري، حاولت جاهدة ألا أتذكر ذلك الحلم الذي رأيته تلك الليلة؛ ولكن دون إرداة مني عدت إلى حلم الطفولة هناك، الحلم الذي رأيته بعد مرور يومين على بلوغي سن الرشد، رأيت في حلمي أنني ذهبت إلى الباحة الخلفية لمدرستنا، لم يكن فيها سوى نبتتي شوك وبعض قاذورات البشر وكلب قابع، هذا الكلب دائمًا في تلك الباحة؛ يبدو أن المدير وضعه هناك للمراقبة، خوفًا من أن يطفر ذكر من السماء إلى داخل المدرسة ويقيم علاقة مع تلك الفتيات اللواتي لم يكن المدير يسمح حتى للمدرسين الرجال الشباب بإعطاء دروس لهن، كان الكلب في استعداد دائم وينظر إلى الجهات الأربع بحذر.

وخوفًا من الكلب ومن فتاة ناصحة تذهب إلى المدير لتخبره عني، كان جسدي ينضح بعرق بارد، كنت خائفة من أن أحلف لهم حتى المساء بأنني جئت إلى هنا كي أتمعن تنورتي الرصاصية لأرى إن كانت قد اتسخت ببقعة

دم، فلا يصدقني وأصبح مثار سخرية صديقاتي، كنت واثقة بأنني حتى لو طرشت توسلاتي آذان السماء ليس مرة واحدة بل آلاف المرات وأبوح بأسراري فلم يكن المدير ليصدقني. لو علم أنني وصلت إلى الباحة التي ارتفع حائطها مترين إلى السماء ولا أرى فيها سوى بقع الغيوم البيضاء والكلب الأبيض. كنت أتوسل لو علم بأمري؛ تطبع على تنورتي بشكل طبيعي بقعتي دم حتى يصدق أنني جئت إلى هنا لهذا الغرض، وكنت خائفة مرة أخرى وقلقة من أن لا يحفظ سرّي ويرسل في طلب والدتي ويقول لها كل شيء. كذلك الطالبات اللاتي كن يهمن حول غرفة المدير ويبحثن عن أي شيء ليضفن عليه من عندهم عشرة أضعاف، من أجل الحصول على درجة واحدة ويقلن للمدرسين، لأن المدرسين أيضًا مثل أمي كانوا واضعين مجموعة من المراقبات لكي ينقلن لهم كل ما يقال.

كيف أن أمي كانت تقول لوالدي مساء حين كنت أكسر قدحًا، كذلك المدير حين كان يسمع شيئًا من طالبة؛ يرسل فورًا وراء آبائنا، من يجزم بأنه لن يرسل أيضًا هذه المرة وراء والدي فيأتي ويوبخني أمام الطالبات ثم يعيدني إلى البيت، حينها تضحك الطالبات عليّ ويقلن: «ها هي الفتاة عديمة الأخلاق، إنها الفتاة المنكوبة».

دون أن أحس بنفسي كانت الدموع تنهمر على خدي من الخوف، وتحرق خدودي المتشققة، كنت أبحث عن حل، أنظر إلى الشمس وأتوسل أن تحدث معجزة وتسحبني إليها، حتى لا أرى أحدًا من الذين أعرفهم ولا أسمع أحدًا... آه كم كان التنصت صعبًا عندي، لأن الأصوات كانت كلها بعكس الاتجاه، لهذا كنت في توسل مستمر، فقبل توسلاتي. ولكن كم كان عيبًا بأن أنزل إليّ شابًا أسمرَ طويل القامة على حصان أبيض، في البداية اقترب مني، ومسح دموعي ليس بيده التي كانت تمسك باللجام البني، بل بيده الأخرى التي كانت تحكم على وشاح يربط به كمه.

الخوف جعل جسدي يرجف أكثر، فمن كثرة التفاتاتي حولي لم أعرف أنه ذكر إلا من ظله ولون بشرته، ومراقبتي لما حولي لم تعطني مجالًا لأنظر إليه جيدًا وأعرف لون عينيه، ولم أعرف ما إذا كان مثل بقية الرجال لديه سحنة خشنة ولسان أملس، وهل أحبني أم لا؟ فلم أعرف ذلك، فقط كنت أريد أن ينقذني.

مسح هو أيضًا بشكل رومانسي أكثر من ذي قبل دموعي بلسانه، يا لهذه الرجفة التي آلمت قلبي، لا أريد حتى لعدوي أن يرتجف قلبه هكذا، الخجل الذي أصابني حين رأيت ظل أبي يأتي إليّ من بعيد، لم أصبح قطرة ماء وأنسكب إلى باطن الأرض، أو أصبح طيرًا وأطير عاليًا إلى

السماء.

لماذا لم أطر؟.....

وهكذا، حين أدرت بوجهي عن خيال أبي، طرنا مع السحاب، كان هو يضرب بركابه على الحصان، أما أنا فحرارة قلبي كادت تصيب ظهره بالحمى، كان صوت دقات قلبي يسمع بسهولة وكادت توصلني إلى ذروة اللذة. عندما التفت إلى الوراء، كان خيال أبي قد وصل إلى الحائط الخلفي للمدرسة ويؤشر بسبابة الشهادة مهددًا إياي؛ مما قطع أنفاسي نهائيًا، أنتِ تعلمين حين ترين والدكِ بهذا الشكل ماذا يعني ذلك؟

لهذا ارتجفت كثيرًا بحيث انفكت قبضتي من ظهر الفارس ووقعت على الأرض، ولم يلتفت إليّ وذهب في طريقه، هناك علمت مدى قساوة أن تترك، وحين نزلت إلى تحت علمت أنه لم يكن ذلك هو أبي بل ظلٌّ لقطعة زائدة من أحد السلالم.

مرة أخرى رفع صوته وسحبني إلى تلك الجمل التي لم أكن أتجرأ أن أتحدث بها مع نفسي حتى في صحراء مقفرة، تلك الجمل التي كانت تضع لها نهايات كثيرة لم أكن أفهمها، أو لنقل كنت أتجاهلها، كنت أريد أن يقولوا إنه شخص معدم ولا يفهم في كل شيء، إلا أنها ضحكت علي وقالت: «أنتِ لست جبانة في يقظتكِ فحسب، بل أنتِ كذلك حتى في أحلامكِ».

الفزع جعل عينيّ تغرورقان بالدم، كنت أحس بأن رأسي يغلي ويصعد منه بخار رطب، قلت في نفسي بأنني لم أحكِ هذا الحلم عند أحد؛ فكيف عرف، كيف؟ لكي تضحك بهذا الشكل.

بيد أنها رفعت صوتها أكثر من ذي قبل، وكررت الجملة ثلاث مرات حينها علمت أنها تقول:

- التي كنت خائفة منها هي طبيعة كل أنثى، إلا أنكِ كنت تظنين أن نتيجتها فضيحة لم ترتكبيها.

«طبيعة كل أنثى؛ إذن لماذا لم أر هذه الغريزة الأنثوية في أمي وأختي اللتين هما أكبر مني سنًا؟ أو لم أرهما يتحدثان عنها ولو مرة واحدة، ألم تكن أمي تقول لي وأنا صغيرة:

- لا تلعبي مع الأولاد في الزقاق فإنه عيب!

- أمي ماذا يعني عيب؟

- أي أن الله يقذفكِ في جهنم.

- «وماذا بعد؟ وما الذي لم أفعله مع الشاب فوق الحصان، فقد خرج الأمر عن الكلام والأفعال» انمحت الضحكة من الصوت هذه المرة وقالت بصراخ مشوب بالحقد والاستخفاف:

- أيتها الحمقاء كان ذلك حلمًا... حلم.

حتى ولو كان حلمًا، فكيف أن نصف مزاحنا حقيقة ونضع عليها أقنعة؛ فإن نصف أحلامنا أيضًا حقيقة، أحيانًا كلها حقيقة، فالذي أعرفه أنتِ لا تعرفينه، مثلما الذي تعرفينه وتتفلسفين به علي وأنا لا أعرفه.

الذي رأيته في المستشفى أنتِ لم تريه، لقد رأيت بأم عيني تلك الفتاة ذات العشرين عامًا في المستشفى، كانت مثل خام الكفن الأبيض تحول لونها إلى لون الأموات، كان الناس يزمجرون عليها، وكانت أمها بعد أن فحص الطبيب ابنتها وقال إنها حبلى، تخدش خدودها أمامها، وليس فقط الفتاة بل كانت حتى هي تخاف من العودة إلى البيت. وكانت تتوسل وتقول:

- يا دكتور، أرجوك أن تفعل شيئًا، فها هي تقول إنها بعد إخوانها ذهبت إلى الحمام وجلست على ذات الدكة التي كانوا قد جلسوا عليها وأصابتها هذه المصيبة.

نظر الطبيب لبرهة إلى الفتاة نظرة مليئة بالأسئلة، ثم قرب فمه من أذن الأم وقال لها شيئًا، وعلى الفور ضربت الأم على صدرها أخماسًا لأسداس وبدأت واقعة الأم وابنتها من هناك، وكانت الفتاة تؤكد باستمرار أنها رأت ذلك في حلمها وأن ذلك الفعل مورس عليها في الحلم، كما رأيت أنا في الحلم.

إلى تلك اللحظة لم أتفوه بكلمة واحدة وكنت أتنفس بصعوبة، ورغم أنني كنت حينها طفلة ولا أفهم تلك المسائل جيدًا، ولكنني كنت أعلم أن هذا الفعل شيء مشين وفاضح، خاصة عندما اقتربت أمي من إحدى تلك النساء اللاتي التممن على تلك الفتاة غاضبات عليها وكل منهن تتكلم على شاكلة مختلفة عن الأخريات، قالت لها:

- ليس وراء الفتاة سوى المصائب، الأحسن أن تربط عنقها بحبل الزواج في سن الثانية عشرة.

حينها كان قد بقي لي أربعة أشهر على بلوغي سن الثانية عشرة، فبت أفكر مهمومة أنه بعد انقضاء هذه الأشهر ستضع عنقي في ذلك الحبل الذي تتحدث عنه، رغم أنني لم أكن أفهم إلى ذلك الحين كيف هي هذه الحبال، إلا أنني كنت أرى جَديّنا الذي في باحة البيت ربط عنقه بحبل، وكل ما كان يملكه هو متر مربع يدور حوله، بعدها التفتت إلي وقالت:

- هذه عاقبة الوثوق بالرجال.

لم أفهم من كلامها شيئًا وقد لمحت ملامح التعجب البادية علي، لهذا وضحت أكثر: «أي أنها لعبت في المدرسة مع الأولاد فنكست هكذا رأسها

ورأس عائلتها، لهذا قلت لكِ ألف مرة وأقولها لكِ مجددًا، كل ما كان ذكرًا لا تثقي به، حتى ولو كان أباكِ، وأي سيارة في الطريق تسألكِ عن بيت أحد لا تقتربي منها، حتى لا يخطفك ويفعل بك هكذا. لا تجاوبي أحدًا واهرعي مسرعة إلى البيت، وبالليل اقرئي «آية الكرسي» ألم أعلمكِ إياها منذ ثلاث سنوات؟ والظاهر أنكِ لم تقرئيها حتى الآن ورأيتِ العديد من الأحلام بالغول والجن والرجال».

فسمعتُ كلامها، وبدأتُ منذ ذلك اليوم أكره جنس الذكر، لم أكن أحفظ أبدًا دروس المعلمين الرجال بل كنت حتى أتصنع المرض كي لا أدخل دروسهم، ولولا أن مديرنا كان متقاعدًا ويلقي الدروس بنظام المحاضرات، لما كان يدع المدرسين الشباب يدخلون إلى مدرستنا، فهو أيضًا لديه تفكير أمي ذاته، لهذا ليس فقط المدرسون بل كنت حتى أكره أخي شوان، بيد أن المدير كان يحبه ويحب كل الأولاد الآخرين وحتى لو كانوا ارتكبوا خطأ لم يكن يرسل وراء آبائهم، كنت كل ليلة أتوضأ وأقرأ «آية الكرسي» قبل الذهاب إلى النوم.

بيد أني ذلك اليوم لم أكن أعلم لماذا يخرج مني هذا الدم، لقد بكيت وخفت كثيرًا وكنت أقول في نفسي هذا هو الذي ينعته الناس بانعدام الأخلاق، نعم لقد صرت عديمة الأخلاق.

كان هذا ما حصل لفتاة المستشفى، وفي ذلك اليوم ذهبت إلى الفراش منذ المساء وكنت أشهق إلى أن أخذني النوم، يا ليته كان نوم الموت، لا أحد يعلم ما جرى لي في ذلك اليوم، فقد كنت كل خمس دقائق أذهب وأغسل ملابسي الداخلية وألبسها مبللة من جديد، الآن أعرف كم أنا مذنبة فقد كنت بهذه الملابس أصلّي الفروض الخمسة، كانت هذه حالي لمدة أربعة أيام.. وفي الآخر.

- في الآخر ماذا؟ فأنت ما زلت حتى الآن مذنبة بسبب أكل التفاحة، ألم يكن كل الذي خوفتكِ به من طبيعة كل أنثى، أم أنها في غنى عن ذلك أو أكبر من ذلك.

كنت فعلًا أظن أن كل شيء فيها ليس فقط أفضل مني بل أفضل من كل النساء، كانت تخيفني دائمًا من كل جسمي، حين نظرت إلى صدري المنتصب بطرف عينها قالت لي:

- بصدرك وثدييكِ فأنت امرأة كاملة، ولكنكِ لا تعرفين الاعتناء بالبيت وتنهين لي بضعة أعمال بشكل مضبوط.

إلى الآن أسئلتي باقية من دون أجوبة، لهذا كنت أظن أن من كانت امرأة وتكبر مع الأيام يجب أن تمر بما مررت به، وبعض المرات كنت أظن

أن ذلك فقط عيب لي وليس للأخريات، فحين كنت أنظر في المرآة كانوا يقولون لي: «لقد بدأ قلبكِ ينبض» فكنت أخجل من نفسي، ثم بعد ذلك كانت هناك مرآة موضوعة بالقرب من حاوية الماء في الحمام، وهناك كنت أنظر مليًا إلى وجهي وكنت أبحث عن تلك الفروقات بيني وبين شوان أخي التي جعلته محبوبًا عند أمي وجعلتني منبوذة عندها، لذا فغالبًا ما كنت أرى نفسي شخصًا ناقصًا أو غريبًا، وحتى سن الخامسة عشرة كنت أسأل خالاتي: متى تزوجت أمي، ومتى ولدت أنا؟ كنت أبحث عن زمن ضائع ربطني بهذا المكان، لانني أحس بأنني صاحبة هؤلاء وهذا الزمن.

- أنتِ مذنبة تجاه نفسكِ، كنت دائمًا خائفة ومنطوية على نفسكِ، لم تكوني تختلطين بصديقاتكِ كي تتعلمي منهن، وتعرفي أنهن مثلك ولا تخافين بعد ذلك من نفسك.

«كنت أخاف أن يعرفن كل شيء ويذهبن إلى بيتنا ويخبرنهم بكل شيء، لأن أمي كانت موصية نصف بنات صفنا لو عرفن شيئًا أو شاهدنني أتكلم مع ولد يأتين مباشرة ويقلن لها، فتشتري لهن أشياء جميلة، ولو كنت اختلطت بهن كان يجب أن أعمل بكلامهن، حتى يوميتي كن يأخذنها مني لأنفسهن، ولو صادف أن يومًا لم أجلب معي مصروفي كن يأتين عند أمي ويلفقن لي تهمة، فكان العقاب أكبر من ذلك».

لهذا ابتعدت عن الكل، وليس لدي الآن أي صديق فتاةً كانت أم ولدًا، ولكن أنتِ كيف علمتِ بهذه الأمور، أتعجب، لم أفصح ما بداخلي لأحد حتى يعلم بأمري، وأنت تعلمين كل أسراري.

- لو كنت حللت تلك الحقيقة أن أكل التفاحة ليس بالحرام بل هو إعطاء المعارف للأشياء فقد كنت الآن تعلمين كل شيء وليس هناك شيء يخفى عليكِ.

«كلا. لن أخاف بعد الآن من مواجهة الطبيعة، ليس فقط طبيعتي. أو بالأحرى لكي لا أخاف من أي شيء، سأعري نفسي اليوم أمام مرآة وأتمعن في جسدي جيدًا إلى أن تتبدد كل مخاوفي».

الشخص الذي لم أعلم إلى تلك اللحظة من هو، رفع صوته ضاحكًا مرة أخرى وقال:

- أيتها الحمقاء، وهل أنتِ بهذه الشجاعة؟ أريد أن أكافئكِ بمكافأة كبيرة، لو راجعت نفسكِ راجعي الزمن أيضًا، حينها مثلما تقولين تمعني في المرآة.

- مرآة؟ وهل جئت على ذكر المرآة؟

«كنت أخاف من كلمة المرآة مثلما كنت أخاف من كلمات أمي، لهذا

شغلت نفسي بالنظر إلى جهاتي الأربع، الكرسي الذي كانت تجلس أمي عليه وتغزل الليفة وتعطيني الأوامر حتى أكمل أعمال المنزل، لم تعد أمي جالسة عليه، والصندل كان مهترئًا بحيث إن قدميّ تلامسان الأرض، والليفات التي كانت منشورة على الحبل، لم تكن مفقودة فقط بل حتى الحبل أيضًا لم يعد له وجود».

بيت ساكن وهادئ، كما لو أنه لم يسكنه أحد منذ قرن، كانت جدران غرفتي مهترئة وأحجارها بارزة، والسماور الفضي مع مقابض الشبابيك كانت مزنجرة ومتآكلة. مسحت بيدي على رأسي وأردت جلب المرآة المكسورة وأنظر إلى نفسي، فرأيت خصلتين بيضاوين متدليتين على صدري فندمت على رؤيتي لهما فأخفيتهما لفوري تحت ياقة قميصي.

مرة أخرى ذلك الصوت الذي تركني لبرهة من اعتراضي ومضايقتي؛ عاد من جديد بجمله القاسية وقال:

- أنتِ تكذبين حتى مع نفسكِ، فها أنتِ تخفين ماضيكِ تحت ياقة قميصكِ.

- أنت... من أنت، فأنت لست بساحر حتى تعلم كل شيء عني.

- أنا صوت هناك... هناك أعماقكِ. تلك الأعماق التي تعبرين عنها فقط بالجمل الكرستالية، الجمل التي تبعدينها عن الواقع، الأعماق التي بدأت تتكلم مع ظلكِ عليكِ.

أوصلتني خطواتي المهزوزة إلى النافذة، ونظرت منها إلى الخارج، لا أتذكر كم من القبور كانت راقدة على الهضبة المطلة أمام بيتنا، حين كنت أسترق النظرات بعض المرات إلى الخارج وأنا أقرأ وأمي كانت توبخني على ذلك، ثم تأتي وتنظر من النافذة إلى كل الجهات وتقول: لأرَ إلى من تنظرين.

حينها، أصبحت الورود والأعشاب غطاءً للقبور لافتًا انتباهي، حيث كانت تشبه خانات لعبة الدومينو تحيط بجانبي الوادي الصغير، الوادي الذي يمر بجانبي الهضبة التي أصبحت الآن مملكة للقبور، لم تعد الورود والأعشاب الآن مثل القبل، فمن كثرة القبور لم يعد للورود والأعشاب فسحة للنمو، فالقبور باتت تشبه النسيج من كثرة اقترابها من بعضها، ربما يرقد تحت الأرض شخصان في قبر واحد، مستحيل أن يعيشا معًا حين كانا على الأرض، هناك قبر رصاصي اللون مائل إلى الرمادي، يبدو أنه كان في السابق أبيض اللون، بيد أن مرور الزمن عليه حوّل لونه إلى ذلك، وعلى حجره المطل مباشرة على نافذة بيتنا مكتوب عليه اسم أمي...

أيار (مايو) ١٩٨٨

قاتلو الثلج

«من الآن فصاعدًا ستدفئ شمس واحدة فقط غرفتنا المتجمدة هذه» قال ذلك وحمل على ظهره مؤونة تكفيه لثلاثة أيام.

خرزتُ خرز يومين، وصلتُ إلى الرابع والخامس من الانتظار، فلم تدلف مع حزمة ضوء، لعلك عدت سريعًا، أخاف كثيرًا من الرحلات المفاجئة، فقد كان من المقرر أن تعود يومًا فتمتلئ غرفتك بنور الأعين البصيرة ودفء الشمس، كنت دائمًا تكتب في بداية الصفحات: «أحلم بالمساءات الخضر» المساءات الخضر؟

في ذلك اليوم، كان الوقت ينزل نحو مساء الجمعة، رسمت على بوسترات فصل الخريف خارطة مساء لون باهت، يتمسح نسيم بارد على الأوراق الصفراء المتساقطة، وتخرج من الأوتار الملينة بالأسرار لكمنجات الأصابع المتساقطة معزوفة الموت لعمرها القصير، وكانت مرآة المنزل عدا عن ظرف صغير تظهر في زاوية قصية، تحضن قامتك، بين الحين والآخر كانت نظراتك تتساقط على منظر الغرفة، يا ترى أي قدر سيتبرعم عنقوده فيها، يمكن أن تكون هدية تكسر عزاء خطيبته المتشحة بالسواد، لأنه حين واجهتها بالسؤال، وقعت منها بعض المصوغات فوضعتها في الظرف.

- أنت تقولين إن غدًا ستشرق الشمس؟

- نعم، فنحن عدنا من الموت إلى الحياة.

«لم يكن بأيدينا، أينما كنا نتحرك، ترحب بنا آثام يميننا ويسارنا» قال ذلك أبي وأشار بإصبعه إلى خديه المغلقين.

- وهل هذه رحلة موعد أم جمع النجوم المتساقطة؟

- يمكنك القول إنها كلاهما معًا، فنحن الآن على شرفة حرة ونحن أعلى هامة، يجب أن تمحى العقاريت من على وجه الأرض وتعاد النجوم المنسكبة إلى السماء.

«يجب أن تمحى... حين ينظر من كوة الذكريات المؤلمة إلى الحياة الجديدة، تقبل السماء شفاهنا، وتسكب دموع الفرح على لعبة العمر، ولم لا نكون كذلك؟ فنحن حتى البارحة، كنا خلال الفصول الأربعة؛ يعطينا والدنا ألعاب الطفولة لستة أشهر، والأشهر الستة الباقية يسجنها في سجن الحائط ونحن نحلم بها، وكان كل واحد منا يذهب إلى مكان، ولكي لا نتبعثر كنا نأوي إلى الصخور وحفر القنافذ، وبين خصلات شعر الجن السود، وحتى بين تجاعيد جبين العجائز، وبيوت الأقرباء... بيوت الأقارب؟ ما أقسى تلك الكلمات الصخرية التي كانوا يقذفون بها إلى

وجهنا: اختباؤكم غير مجدٍ فعيونهم مثل عيون الأفاعي، وهذا المكان لا ينفع لكم لأنه تفوح منكم رائحة البارود، سيجدونكم عاجلًا أم آجلًا، وسيخربون منطقتنا أيضًا، لو أردتم سنوصلكم إلى طرف الشارع لتذهبوا إلى بيوتكم».

كنا نخجل من أنفسنا، ونحمل على ظهورنا أحجار الطرق الليلية. كنا حينها خمسة أطفال تحت صدر أربعة حيطان، وإلى الصباح كل دقيقة ينطفئ القمر خمس مرات وينسكب هلع النجوم في بلعوم الليل المظلم.

خمس مرات كانت الكلاب والرياح تعوي وتقذف بيتنا بالحجارة. خمس مرات كانت أصابع الرقيب تدق الشباك، ليس بلغتي بل بلغة أخرى كانوا يقولون «لا يبدو أن فيها أحياء، فالنور مسكوب هنا لآخر قطرة».

خمس مرات كانوا يسحبون ستائر الشباك المكسور وينصتون إلى أنفاسنا المكبوتة؛ فكنا نلتصق بركن الغرفة والزاوية القريبة للشباك.

لملمت أنفاسي اليائسة، لعلَّ الصمت يسقطها في آنية الصباح، ويلتقط الصبح نظراتي البريئة وسط دموعي المسكوبة، ولملمتُ بقطعة اسفنجة آخر الدموع المنهمرة لأمي، وأعصرها في خمسة أفواه متيبسة وضيقة التنفس، كان لا بد أن أمسح أيضًا سبورة شعبتنا بهذه الاسفنجة؛ ونغمض أعيننا عن موت الثلج وانكسار القلم وشفط الدرجات.. وإلا.. فإن قاتلي الثلج كانوا يسدون بطين أجسادنا شقوق أبوابهم ويلبغون به نوافذهم؛ حتى يودعوا بسببنا جسد البحر وعين اللون ودماء الثلج وحليب الغيرة إلى الثرى، في الوقت ذاته كان معلمنا الأسمر يلفظ كلمات لم أكن أفهمها، حتى يترجمها لي صديقي الغريب، ثم يلف رجله اليمنى ويدخلها في جيبه وتلعبا بؤبؤا عينيه وراءنا، حين كان يمشي من اليمين يرتفع صوت عصا يده على رأسك ويعود من اليسار، ويلسع رأسي مثل الزنبور، كنا نتبادل نظرات قصيرة دون تلفظ، وتصبح أسراب الدموع موكبًا من الأسئلة، وتحيط جملة «ما هو ذنبي؟» دفتي قوسين، حينها كنا نتوسل عمر الطفولة من الملائكة، حيث كانت توابيت الجحيم تعلمنا لغة اليأس؛ ونحن نعلمها فراديس الحياة، عندما كنت أسقط عناقيد عيون المنتظرة، قال لي صديقي: «أغلقي نافذتك، حتى لا تتسبب الرياح بتساقط شعرك».

«بيد أن إغلاق النافذة علامة على الخوف، والخوف دليل على الضعف؛ وكلما ضعفت أمه، تبدأ بإغلاق النوافذ على نفسها».

«ولكن سيتساقط شعرك».

«شعري.. آه يا صديقي. سيتساقط مع أول سقوطي إلى حضن الأرض، وإلى الوقت الذي تنتهي قصائد الآثام البريئة للوجود وتُبَرعِمُ الورود؛

فتركت بلاد الضباب وهاجرت نحو نهر مخبوط، عند تلك السواحل حيث يصنع من شعر النساء الطويل أكفانًا سوداء، وتحرقن بجانب جثث أزواجهن وهن أحياء» كان ذلك الساحل قد بدل سماءه وأرضه.

حين أخذناه منه بتناوب، وحين عدتُ، كنا فراشات صغار، وحين كانت الظلمات تقبض علينا نتحول إلى أغنية تاريخية، وبين أوراق الورود كانت صاعقة النحل السكارى تسقطنا.. اكتبوا بقلم التكحيل خاصتي على الأزهار الوردية «البنت بدون أخيها سراب» ونحن بتؤدة نتجمد حتى...

صرير الباب وصوت بكاء عالٍ؛ أودع طول انتظاري إلى ريح مغامرة، ازداد الصوت وبات صوتين، ثلاثة، عشرين، فزعت وتمعنت السماور المشتعل أمامي، كان بخار ساخن يملأ الغرفة، وأربعة أصابع من قدمي كانت متروكة في الماء، وبدل الباب فتحت الشباك، سحبني تيار كهربائي ودون وعي ملأ صراخي سماء الغرفة: «يا أماه.. انظ.. انظ.. انظري ماذا حدث» مقبض الباب خلع مع يدي؛ كان يشمغ أبي مفروشًا على جثة هامدة، كانت الأصوات تتبعني وتطيرني، تطيرني. لهذا قفزت فوق الجثة، حتى قطعت الرواق تعثرت مرتين بنجانات الورود الموضوعة هناك، وعندما التفت، كنت قد تركت فرسخًا من النزيف ورائي، انغمست فيه سعفات الورد الذابلة وأتربة الانجانات المكسورة، حينها ضباب أبيض.. لا؛ قامة من الثلج، أصبح ظلامًا. أو أن الوقت كان متوقفًا. لا أعرف، عندما رأيت أمي من بعيد، كانت تربط كم ثوبها إلى رسغ السيارة وتجري دبكة الجمري، وكانت سكاكين أظافري تخدش لحم وجنتيّ، وكلمة بكلمة كانت تنقر روحي، هذا النواح البارد، مثل نواح الثلج يغمس تمثال قامتي في نزيفي وأعفر جذوة جسدي في التراب. قال صوت ما: «هذا الرحيل البارد يشبه رحيل قزعات الغيوم».

ومضطرة، تبعت مثل المجنون أمي والنساء اللاتي كن أيضًا رابطات أكمام أثوابهن، اللاتي علمنني خدش الوجنات من الصغر، وعندما كبرت أقفلن علي الباب وأعطينني بيدي ألعاب الطفولة.

خطوة واثنتان وثلاث... جملة.. جملتان.. ثلاث أسئلة تضيع في بركة الإجابات وتثير تقيؤي.

- يقولون داهموهم وأفرغوا أعشاشهم وقتلوا جثثهم.

- نحن غربان نعيق حتى على أعشاشنا (ما هذه الأصوات.. ما هي.. ما هي.. متى نستطيع أن نصبح صرخة نقطع الأسوار الصامتة ونخرس الأسوار المليئة بالضجيج).

- يا ليت غريب فعل ذلك، وليس.. من أجل (...)[3]

بات صبري مرهونًا بخطواتي البطيئة، مخالب قلبي ثقبت جدران صدري، تضخمت مثل كلماتهم وشيئًا فشيئًا كانت الأوقات الأسطورية تضيع من أيدينا، غرقت عيناي في تلك السهول وكرنفالات الدموع، كان زحام المجاميع يتماوج زرافًا، ويصبح في نظري نقطة سوداء، لم تكن خطواتي أوصلتني بعد إلى عند منتظري؛ حتى ضربت بوجهي على التابوت فهويت فاقدة الوعي.

شباط (فبراير) ١٩٩٦

---

3 اقتبس هذا الحوار من كلمة للكاتب الكبير توفيق الحكيم.

حريم الجنرال

«سأراه الآن وأقول له إنه من المحال أن يتحقق الذي يحلم به، فتحقيقه يحتاج إلى الاستعدادات التي سأجريها أنا، وأنا غير مستعدة أن يتلاعب بي أحد، فقد كنت حلم شخص لم يفهمني، وبما أنني كنت أحبه فقد تركته وابتعدت عنه، فحب بلا نتيجة سينتهي بالكره وأنا لم أرغب في كرهه... فإنه...».

سأقول أيضًا للحريم في القصر الأبيض ذي الزجاجات السود: أنتنَّ تحسن بالنقيصة، كلا فأنتن نرجسيات وتردن مثل النساء العاديات اللاتي يعشقن من قبل أناس عاديين أو رجال فقراء؛ فإن الجنرال بذاته يحبكن، أو أصبتن بالكآبة ولا تسعدكن غير رقصات الجنرال... كلا، بل أصبتن بالهستيريا وإلكترابيت وأوديب، وكل الأشياء غير الحسنة في الدنيا... فلماذا إذن يريدكن الجنرال وجمعكن هنا؟ فالذي كنتن تحلمن به ومن أجله سلمتن أنفسكن لهذه النتيجة هو أن تصبحن ملكات بين النساء، وبعضكن من أجل الرخاء والانتشال من الفقر، أما بعضكن فتفخر بأن الجنرال يريدهن للمتعة، ودائمًا يحاولن الوصول إلى كل جنرالات الدنيا حتى يجلبن في سيرتهم ويتحدثن قائلات إن: «رجلًا مشهورًا حرث أجسادنا». أما أخريات منكن فماسوشيتيات، لعل وحده الجنرال بزئيره وصراخه ونواحه يستطيع تعذيبكن، وماذا بخصوص أخريات، أبناؤهن مساجين وتنازلن عن كل شيء من أجل إبقائهم أحياء.. أشمئز كثيرًا من الجنرال فهو يسلم نفسه لكل شيء، لا أجزم أن في مملكة الحريم كلها، تحبه إحداهن، لا.. لا.. فهو ليس بذاك الجنرال المغوار الذي كنت لسنين...

أفزعها وأعادها إلى وعيها ذلك الصوت الذي يشبه الزئير والمنبعث من تلك الغرفة المطلة على الشرفة التي كانت معروفة بقاعة الانتظار، كانت مع أشخاص آخرين تنتظر على تلك المقاعد المتجمدة هناك، لم يكن الصوت غريبًا لديها، كان يشبه تمامًا ذلك الصوت الذي كانت سمعته في ما مضى يعطيها دفئًا وحنانًا، فأحست بالأسى، أن يكون صوت رقيق مثل ذاك يصرخ الآن ويزمجر.

- افتحوا أبواب الزريبة الخلفية واملأوا المشاعل بالزيت لتضاء لسيل حريمي الخاص هه ها ها... انتهى... يحلو الارتواء من نبع مرة واحدة فقط... ولكنني مثلما يقال: «النبع الذي تشرب منه لا ترم فيه الحجارة» سأكون وفيًا تجاههن وسأجد لهن عملًا في دائرتي، ولن أرميهن بالحجارة.

كان هذا الصوت يشبه تمامًا الصوت الذي ملأ قلبها بهمسات الحب

ومعاهدة الزواج ووفاء القلب، هذا الصوت الشجاع الذي من انعدام مواقف البشر؛ كان يتكلم عن الجرأة، ومن الخيانة؛ يتحدث عن النزاهة، هذا الصوت يشبهه فقط في الصدى، فلم يكن في الأفعال يشبه ذاك، فلم يكن يجعلها تنتظر في غرفة الانتظار أبدًا، بل كان يضعها عند سكرتاريته الخاصة. وأول ما يذهب ضيوف الداخل، كانوا يؤشرون لها بالدخول، ذلك الصوت الذي كان ينسق اللقاءات بينهما حسب هواها في كل مرة، وليس حسب جدول أعماله. «لا، هذا الصوت فقط يشبه ذاك الصوت... وإلا لن يستطيع أبدًا أن يكون مثله جبارًا وشجاعًا، فقد أسمعني ذاك الصوت مرات عديدة كلمات الحب، ولو كان هو لكان يدخلني إليه فورًا حالما يعلم بأنني هنا، وكنت أقول له ما جئت من أجله... وربما لو علم بأنني أسمعه لما رفع صوته هكذا، ولم يظهر نفسه بهذا الشكل، بل كان يتعامل بذات رقة ونعومة الأيام الماضية». قصدها ذلك الجنرال الوهمي الذي لم يكن العقل يصدق ما ترويه عنه بكل تلك المثالية، وهمْ يكون أنزه وأنبل من الكل، مواقفه وسلمه أقوى من الكل، كانت تلعن كل تلك الأقاويل التي تروى عنه، وليس هذا فحسب بل كانت تدافع عنه أكثر، وتمدح بنزاهته ونبل أخلاقه وشهامته لدرجة أن الناس كانوا يظنونها مصابة بحالة نفسية، خاصة وأن الناس كانوا يتحدثون عنه بشكل آخر، حتى ذلك اليوم حين كانا في غمرة القبلات والاحتضانات، وإذا بخدها الأيمن اشتعل نارًا، في البداية ظنت أنه يداعبها. ولو أنها قالت مع نفسها: «إنه يمزح فليس من المعقول أن يضربني بكل قوته، فكلما ضربته لكمة وعلمت بأنني أوجعته، تمنيت لو انقطعت أصابعي، حسنًا ليقولوا إن مزاحه هكذا».

كلا، فصفعاتها توالت بحيث ضاعت منها أعدادها، ولكنها كانت تراودها أشياء كثيرة فكانت في البداية تشفق عليه، فكانت تخاف أن يصاب بحالة عصبية، حينها ستضحي بكلتا وجنتيها له، فكيف كان يمسكها ويقبلها إلى أن يتعب؛ فلتضربه إذن بالوتيرة نفسها. «أحببته لدرجة أنني تمنيت أن يكون قدري وحتى مماتي بيده، وأعيش له حتى مماتي والأفضل أن أموت على يديه لعل هذه الأمنية تتحقق».

أثناء تلك الضربات كان يبحث عن بريق حب يتلذذه، لذا كان يتمعن تلك العيون التي لم تكن عيون بكاء، بل عيون العشق، حينها عاد إلى وعيه وعلم أنها تضربه بلكمات على عينيه، فعرف أن هذا ضرب ما بعد التشبع، خاصة وأن هذه أول مرة في حياتها أحد ما يقول لها «أيتها التافهة، عديمة الحياء، أيتها الباغية» كانت هذه الكلمات تثقب أذنيها بشكل لم تعرف ماذا تقول له، فقالت له والغصة في فمها:

- الآن عرفتك على حقيقتك، فملامح شخص مثلك لا تتحمل الحكمة أكثر من ذلك.

لم تكن قد فرغت من كلامها حتى حمل الجنرال العظيم حقيبة نسائية وقال لها:

- اخرجي بسرعة قبل أن أفجر رأسكِ برصاصة واحدة.

- ماذا يعرف شخص مثلك عن الحب، فأنت جنرال الحروب وصديق الرصاص والأسلحة، ما دامت هذه حالك فلماذا أعطيت لنفسك دورًا في هذا المسرح، أشخاص مثلك يجب أن يفخروا بحروبهم فقط.

كنت أظن أنه يسمع كلمات قلبه، وصوت في داخله يقول: أنا منتصر في كل الحروب، حتى في حرب الحريم. لأنني سمعته يقول كلمات من بين شفتيه: أصبحت الحريم بهذه القدرة كي يضربن الرجال، أنت تضربينني؟ حينها علمت أن الجنرال بعد الإشباع لا يريد ان يرى حتى وجهي، والكمات والصفعات الخفيفة التي كنت أضربه بها؛ فقط لأذكره بوجودي بجانبه، إلا أنه أحس بأن ذلك كعداء له وبمثابة أخذ الثأر. لهذا قلت له:

- أيها الجنرال أنت دائمًا تحس أنك منتصر، ولكن يجب أن أفهمك يومًا بأنك منتصر في حرب خاسرة.

- ....

- ولكن يجب أن تعلم أن في الحروب ليست هناك من قيمة لدموع المرأة ودماء الرجال.

- .....

- عندما تحس أن دموعنا تساوي دماءكم، حينها ستعلم أنك منتصر خاسر.

حين أراد الجنرال أن يضمني إليه مرة أخرى و... أعاده صوت السكرتيرة التي أرادت الدخول، وتقول له بأنه بقي شخص واحد فقط في غرفة الانتظار، في البداية كان ينادي اسمك في القاعة رجل زنجي طويل القامة، فتدلف إلى غرفة أصغر، فتستقبلك فتاة صغيرة السن شبه عارية، وتأخذك إلى أمام الباب فتقرعه، فتستقبلك فتاة أخرى على ذات الشكل فتدخلك إلى الغرفة التي كان سقفها مطليًا بالكرستال وماء الذهب بشكل يأخذ بريق العين، وفي الداخل كانت الحريم تدور حول الجنرال لتلبي رغباته، وبعضهن بلا حياء...!

لم تكن قد رأت شخصًا هكذا من قبل، فهذه أول مرة ترى الحقيقة بنفسها التي كانت سابقًا لا تقف فقط ضد سردها، بل كانت تدافع عن

صاحبها أيضًا، حينها علمت أن المغوار الوهمي الذي خلقه خيالها، لم يكن سوى ملامح ملعونة وقبيحة تعبر عن الجرائم. فلم تلحق أكثر من ذلك أن تستحضر ذكرياتها، ولكن شيئًا واحدًا فقط كان يسيطر على تفكيرها، وهو أنها تركته آخر مرة أثناء الاحتضان، والآن هو بركان من الحقد والغضب لترويضها، وإن كل الذي سبق كان تمثيلًا كي يقنعها، والآن قبل أن تسأله ماذا تريد مني، كان يصيح: لا داعي أن تقولي شيئًا، وهذه أيضًا من بقاياي خذوها إلى الزريبة. أنتم تعلمون أن جميع الديكة حين انهزموا من قتال الديكة، أخصيتهم جميعًا؛ فماتت الدجاجات أيضًا من القهر، والأخريات بتن لا يضعن البيوض كاعتراض على فعلتي؛ فذبحتهن جميعًا، لهذا فإنني أريد منكن أن تجلسن على تلك البيوض الباقية حتى تفقس، أريد الاستفادة منكن لاقتصاد البلاد، حينها ستستفدن مني، أريد أن أستفيد منكن كل بشكل مختلف.

٤/١/١٩٩٩

آفات الروح

في كل يوم حين كان الصباح يُقبّل وجنات الليل، ويبدئ لونه الغامق في عينيه، يظهر ظل رجل في وسط القرية، تتقطر من خطواته البطيئة مكابدات الزمن وقساوة العمل، كلما أسرع في خطواته، كان الطريق يطول أكثر أمام عينيه، كان يشهق آخر أنفاس التعب حتى يصل إلى تلك الزريبة التي كانت تعج بالجواميس وتبعد عن بيته عدة فراسخ. منذ أن ظهرت إلى الوجود، ولم تفكر لمرة واحدة ما الذي يسعد ابنتك الوحيدة وما الذي يحزنها، كان عدم الرضا ينعكس باستمرار في بريق عينيها... ولكن... كيف يمكن أن تتراجع عن كلامك. أنا رجل ولديّ غيرة... أنت مذنب، لأنك دائمًا منشغل وراء الأبقار وشراء الجواميس دون أن تميز بين زوجتك وابنتك وجواميسك. تحاسب الجهتين بالعصا، أنا الذي فعلتها بنفسي.

كان يؤنب روحه بهذه الكلمات، فجأة ثارت نفسه وأفلتت منه لجام الاحتمال؛ فالأيام الماضية ازدحمت ذكرياتها أمام باب الحاضر، بحيث لم تعر اهتمامًا للشاب الذي كان يأتي مع أبيه إلى بيتهم لشراء الجواميس والحلال وتحويلها إلى خارج الحدود، ثم يعودان مرة أخرى لشراء المزيد. بعد عدة أيام اشتعل ينبوع عشق لديها ليطفئ روحها، أطفأ نورًا ضياء الرواق أمام ناظرها، ورغم أن «كوله» كانت تخاف من إخوتها الستة وأبيها أن تبادله ولو حتى ابتسامة من زاوية قصية؛ ولو أن موجات العشق كانت تجرف سواحل روحها تحت صغار الحصى، فقد كانت تلصق الأحجار بحيطان المراقد التي كانت صديقاتها ينتظرن منها بيان المصير، إلا أن ألحان العشق تنهزم حين كانت تسمع أبيها، فقد كان يقول: «لديّ ابنة واحدة لن أعطيها لغريب لكي يبعدها عني، خاصة لو كان من مملكة أخرى، لقد خصصتها لابن أخي فلا أحد يفكر في الحصول عليها».

كان رجلًا يملأ صندوق أسرار عمره بالحديث عن المال والدراهم، عمل دائمًا في الظلام، لم ير قلبه النور ولو لمرة واحدة، فقد تعوّد على أن لا يعيش يوما مضيئًا، فقد كان يعيشه بتجميع الحيوانات والحبوب والمال، إلى حد أنه جمع من حوله ستة أبناء يافعين دون أن يزوج أحدًا منهم، لأنه كان يرغب أن يكثر كل شيء من حوله والجميع يحملون اسمه، وكان يعتقد أنه لو تزوج أحد أبنائه فإنه سيبتعد عنه ولن يكون له علاقة به، وبسبب ذلك فقدت «كوله» الأمل أكثر وباتت تعيش في ظلام البيت وأطرشت نفسها عن كل قيل وقال، يستقبلها يوميًا موت طبيعي وهادئ بارد، إلى ذلك المساء حين جاء صمد ومنحها مفتاحًا من الأمل وشيئًا من

القلق، وقررا بعد أن يغط كل شيء في نوم عميق؛ فقط بعلم النجوم يهربا ويتركا هذه المنطقة.

***

أسقط الخريف آخر أوراق ودموع «كوله» ولم ينته ليل ونهار طريق الغربة والمعدومية والوحدة، أوهنت الهموم قوة العشق، وباتت المناقرات والمشاجرات تزداد بينها وبين صمد يومًا بعد يوم، لهذا أصبح التعب فقط أرشيف هذه الحياة المنكوبة، تبكي الدموع الأمس المحروق بالعشق، واليوم المفضوح، والغد الفج.

- يا صمد، لقد حملنا العشق وهربنا؛ من أجلك تركت بيت أبي، تركت بلادي ووطني، لتعوضني بهذا الشكل؟

- كوني شاكرة لهذا، فقد أبعدتك لدرجة أن يد أبيك وإخوتك لا تصل إليكِ ليقتلوكِ.

- بقدر ما أنا مقهورة على عدم وفائك، فأنا أموت قهرًا على ابتعادي عنهم، لقد كنت الأخت الوحيدة لأب وأم وستة إخوة، والآن مسجونة بين أربعة جدران أواسى بكلمات غير لائقة، وها نحن في الربيع ومنذ الشتاء المنصرم لم أرهم ولم أسمع شيئًا عن أخبارهم، ومن كثرة رؤيتهم في أحلامي يكاد رأسي ينفجر، ولم تدعني أتكلم مع أحد خلال تلك الأشهر المنصرمة، لم أعد أحتمل أكثر من ذلك، لنعد إليهم ونطلب منهم الصفح والسلام، فأنا آيلةٌ إلى الزوال يا صمد؛ ساعدني كي أعود إليهم وأزورهم.

- مثلما تبعتِني بنفسكِ إلى هنا، تستطيعين العودة أيضًا بنفسكِ. كانت هذه الجملة مثل لعنة؛ يستنفد احتمالها، مكروبًا ينخر داخلها وتكرهها أكثر ببلاد الجبة والعمامة، كان كل ما يصبرها هو تلك الجاموسة السوداء التي اشتراها صمد وأبوه من بيت «كولاله» من أجل حليبها ولبنها. كانوا يرعونها إلى ذلك الحين فكانت صدرًا دافئًا لدموعها. إلا أن كرب ذلك الهم كان ينتشر يومًا بعد يوم في جسدها ويوهنها أكثر، انطفأت ضحكاتها الربيعية ولم تعد تقدر على عمل شيء، والبرنامج الوحيد الذي كانت ما تزال مستمرة عليه، أنها كانت تذهب مثل طفلة أخذت من أمها عنوة؛ تتنهد للوصول إلى تلك الزريبة التي فيها الجاموسة فتحضنها وتمطرها بالقبلات، ومع كل قبلة كانت صورة أبيها أو أمها أو أحد إخوانها أو أحد أقاربها تطبع على عينيها.

«أصبح فداءً لعينيك الصفراوين أيتها الجاموسة السوداء، تشبه عيني صديقتي بهار، كنت أفشي لها مثلكِ الآن كل ما في قلبي، كنت أزعجها ليلًا ونهارًا بذكر حبي لصمد عديم الوفاء والذمة، أيتها الجاموسة السوداء إني

أشم رائحة أهلي وعزوتي جميعهم منكِ، فأنتِ الآن بمثابة جميعهم لي، فضرعكِ له رائحة يدي أمي اليابسة، وطبعت على ذقنكِ ورقبتكِ رائحة أبي وإخوتي، فلا أملك هنا غيركِ، ولكثرة ما أتكلم معكِ لو كنت حجرًا لأصبحت الآن تتكلمين، هيا قولي لي ماذا أفعل... قولي لي إلى كم قرن آخر سنكون هكذا عديمي الحظ، وحياتنا لا نتحكم بها مثل ولادتنا، ولا تلبث أحلامنا أن تصل إلى حد التكلم حتى تتساقط، أيتها الجاموسة لا تكوني مثل الزمن دخيلكِ، أريني شيئًا يشبه الوطن، فقد ضاعت من عيني كل الصور، لعل اليد السوداء للغربة فقط تستطيع أن تؤرشف كل تلك الصور في الذاكرة، ماذا أفعل؟ كيف أكسر طوق الغربة والبعاد وقيد هذا الظالم؟ كلا لم يعد في مقدوري، أترين كيف أن هموم البعاد علمتني كيف أتكلم، سنهرب سوية، آخ حبذا لو كنت أجبتني؛ كنت سأصعد على ظهركِ ونتوجه نحو الديار... لأنني أنحدر نحو الموت. لأموت عندهم أو دعهم يقتلوني، حتى ولو تبرأوا مني، فأفضل أن أموت في وطني، فأنا وحيدة هنا، كان صمد سلواي الوحيد؛ وهو أيضًا ظهر على حقيقته معي بهذا الشكل».

كانت الجاموسة ترفع رأسها باستخفاف، وتغرورق عيناها بالدموع، ثم يرفعها الى السماء وتهز بخوار مهموم وتعيس تلك المنطقة، وعندما رأت كولاله أن صحة الجاموسة في النزول منذ اليوم الذي بدأت تراودها وتشكي لديها، تمرضت أكثر، لأنها كانت ترى نفسها معها في معادلة واحدة، لهذا قررت أن تهرب معها في اليوم والساعة التي هربت فيها من بيت أهلها، لتعود إليهم، فحزمت أمتعتها وزاد الطريق يكفيها لعدة أيام وتركت بلاد الحجاب والعمامة في ذات الليلة التي هربت فيها سابقًا، وبدأ مسيرهما نحو بلادهما وقريتهما.

قطعت الجاموسة السهول والوديان منذ عدة أيام ولياٍل، حتى خارت قواها وباتت ترمي خطواتها متبعثرة بعيدة عنها، وجمد الصقيع والبرد شفتي كولاله وأعاقها عن الحركة، وباتت خائرة القوى، لم يعد في جعبتهما سوى زاد لبضعة أيام أخرى، إذن فالروح المتعبة والراغبة لكولاله جعلتها تتحمل الحياة إلى هذا الحد؛ وعبرت الحدود ووصلت إلى وطنها وأراضيه، وفي ذلك النسيم والآهات، تبعثرت أنفاسها مع الندى على أوراق الورود وطارت روحها التعبة إلى فوق الأزقة وأماكن اللقاء ومنزلها.

كانت الجاموسة السوداء تقطع القرى الواحدة تلو الأخرى بقهر ويأس عميقين، وخوارها الكئيب يحول قلب الحجر إلى ماء، وحين كان الناس يرونها بهذا الشكل يقفون واجمين ويخرسون من الدهشة في أماكنهم،

وبعضهم حين تعود ألسنتهم للكلام، كانوا يقولون:

- إنها نهاية الدنيا... وإلا... لم يقولوا ولم نسمع أن تحمل جاموسة جثة بهذا الشكل وتكون دارسة للطريق لتعود بها إلى بيتها وتدمع لها مثل البشر وتنوح لها.. هذه أسطورة.. أسطورة.

وهكذا بدأ الناس بالتكلم، وكل يتكلم بشكل مختلف.

- ربما قد نزلت من السماء لتري الناس معجزة.

- لكثرة انعدام الرحمة والضمير لدى الناس، فإن الله يرينا الرحمة عند الحيوانات.

- أخاف أن تكون سيناتنا للحياة الأخرى؟

- انظروا لغيرة هذه الجاموسة الخرساء ليكون مائة شخص قربانًا لكِ.

- هذه معجزة لكي يتوب الناس، هذه المرأة عفيفة وبريئة لهذا يجازيها الله هكذا.

- من يقول إنها ليست من نسب الشيوخ والمشايخ والعابدين، لنذهب ونقطع من ثوبها قطعة صغيرة للتبرك.

- أنا أقول لنتبعها لنعرف إلى أين تذهب وماذا ستفعل.

- كيف تتجرأ على قول ذلك، ألا تخاف أن تعميك ولا ترى شيئًا بعد ذلك لأنك أردت أن تعرف سرها.

- إنه يصدق، من يقول إنها ليست خضر الحي؟

- يا ملا (...) أنت أفتِنا وأعلمنا بحقيقة هذا.

- بسم الله الرحمن الرحيم، إن هذا السر لا يعلمه أحد منا غير الله سبحانه وتعالى، لأن ذلك سيسجل له بالكفر، ولقد جاء في القران الكريم ذكر قداسة هذا الحيوان، ومنذ الأزل يعرف هذا الحيوان كحيوان مقدس، عندما يقول موسى لقومه «إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة» وأيضًا في جواب للقوم يقولون «ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقرة تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون» لهذا يا إخوتي، وأخواتي المسلمين، لا تشغلوا أنفسكم بهذه الوساوس، ونعوذ بالله لأنها تصيبنا بالكفر، لأن موسى أيضًا لم يكن يعرف لون وهيئة هذا الحيوان إلى أن جاءه وحي من رب العالمين، لهذا تحملوا واصبروا «إن الله مع الصابرين» وبهذا هدأ الناس، والتفتت الجاموسة إليهم بحقد كأنما تقول لهم: ما كل هذا البهتان الذي لفقتموه لي؟ إلى أن ظهر رجل بين الجمع لم يكن قد تلفظ بكلمة واحدة بل كان يهز رأسه؛ قام وترك الجمع وجاء أمام الحيوان، كان ينظر إليها عن قرب كأنما هما في حوار بالأعين، وكانت الجاموسة واقفة تتمعنه والدموع تغرق عينيها وينبعث منها صوت خوار خافت وبائس وحزين، بحيث كان العطف

يصاحب بالإحراج أمامه، والرجل مثلما يكون قد فهمها فهرع وجاء بحبل لربط الجثة على ظهرها لكي لا تقع أرضًا في الطريق، فطفقت تسير أسرع من قبل حتى اختفت من أمام أنظار الناس، وبعد ثلاثة أيام بلياليها وقبل طلوع الفجر وصلت إلى قريتهما.

كانت عائلة كولاله متحضرة لوقوع أمر ما، استعدادًا لأمر غامض، شيء راودهم في الإحساس فقط، لم يصلهم شيء مرئي أو دليل مادي، فالإخوة الستة بأمر من أبيهم بعد أن جرفوا كل الثلج الذي كان سقط على بيتهم وفنائه وزقاقهم، باتوا مستعدين وواقفين على أهبة الاستعداد ولا يعرفون لماذا، هل هو لاستقبال خبر مفرح أم محزن، كانوا يفكرون في كلام أبيهم، حين يقوم الصبح ليصلي فتنتبه أمهم من صوت أنينه ودعائه، فيقول لها أن تحضر طعامًا كثيرًا لهذا اليوم وأن لا تبوح بأنينه إلى أولاده، ثم يقوم بنفسه بإيقاظ أبنائه ويأمرهم بأن يجرفوا كل الثلج الواقع في فناء بيتهم، بحيث يكون السير فيه سهلًا، ولا يتعب أحدًا: لقد رأيت حلمًا بأنه سيأتينا ضيوف اليوم، ضيف عزيز علينا، ونحن ننتظره منذ أمد بعيد، أنا لن أخرج من البيت وكذلك أنتم لا تخرجوا اليوم من البيت وكونوا في الانتظار.

كانوا ما يزالون يفكرون في هذه الجمل، وإذا بصوت خوار لم يكن غريبًا عليهم دخل إلى آذانهم. ومع خوار حزين كانت تمسح برأسها على الباب.

حزيران (يونيو) ١٩٩٧

الأحلام العرفية ولعبة الشر

كانت حزمة النور الداخلة من الكوّة تنير الغرفة تمامًا، كل الأغراض من أصغر الأجهزة الكهربائية إلى أكبرها غارقة في صمت تلك اللحظة المرتبكة، كنت تسمع صوتًا واحدًا، وهو ضربات قلب وهمسات ثلاث أو أربع من صديقاتك اللاتي كن يمنحنكِ دائمًا أسرار الوفاء وياقوتات الإرشاد، كن فقط ندماءك، وكن أيضًا مدمنات على التيهان، إلى اللحظة التي كن يحمن حول جثتك التي كانت ما تزال دافئة، كن يحمن حولك من بعيد، فكن يخفن من توسيخ أصابعهن بالغبار الملتصق بطين جسدك، ذلك الغبار الذي التصق منذ زمن ومسحه محال، فطفقن يلملمن تلك الرسائل التي كانت متبعثرة من حولك، فقط الصور والرسائل التي تبعثرت من حولك، أما التي كانت واقعة على صدرك وتحت إبطك وكتفك ورقبتك فلم يكن يتجرأن حتى على الإشارة إليها، الظاهر أنك قمت بقراءتها قبل موتك، هذا عدا عن بعض الشرائط الغنائية وصورك الفوتوغرافية، التي كنت تظهرين فيها بشكل مشوه وأنف أفطس، وفي بعض الصور تظهرين بابتسامة مسمومة، تبدي على محياك تجاعيدها، وشفتك المتقشرة التي كانت تشبه مثلثًا من فوقها أقل مما مقشر من تحتها، محدثًا فجوة في شفتك، مما أظهرت أسنانك المنخورة والسوداء إلى لثتك المزرقة، كانت هناك جمل مكتوبة على كل صورة أو رسالة بحيث من يقرأها يقع في تفكير وتمعن، ويعبر بجملة من تحت شفتيه، وشهقة باردة تسحبهم تحت طائلة الشك في وجودهم، فكانت كل كتابة مكتوبة بتعبير مختلف عن البقية.

«سيدتي... أرجو منكِ المعذرة... كامرتنا معطلة، فشوهت ابتسامتك الموناليزية».

وصورة أخرى شخبط عليها بالقلم ليكثف شعره المبعثر ويجعله مثل مظلة سوداء؛ حتى يعطي منظرًا أجمل لوجهه المطعج ويبدو شعره أكثر كثافة، وأيضًا يخفي لون عينيه القميئتين بسبب تلك الكثافة، وكانت هذه الكلمات من خلفها تعطي انشراحًا للقلب:

(صفحكم دليل على ترحمكم فهذه

الآ

ل

ة

المنحوسة لا تظهر شكلك الجميل بصورة طبيعية) إحدى الحاضرات ابتسمت من دون إرادتها وقالت: «بالمناسبة أين التقطت هذه الصور،

قصدي أي مصور هذا؟» أحد آخر:

«وهل رأيت هذه الشرائط المسجلة ماذا كتب عليها؟ إحداها مكتوب عليها (هدية إلى حبيبتي جنور) والأخرى (كل كلمة من هذه الأغاني هي تعبيري لكِ يا ـجـ الروح و... و...)» فملأت شهقة عميقة حلقها بالغصة، فقالت:

- لم أكن أعلم بهذا من قبل، لم أعرف أن هناك أحدًا يحبها بهذا القدر.

- فليرحمها الباري، لم يكن تبين عليها هذه الأمور، فكانت ملامحها تقطر شرًا وتشبه الصياد الذي رابط في كمين لاصطياد الفريسة.

- أخاف أن يكون قد أصيب هذا الشخص بالأذى ولم تتحمل هي فقتلت نفسها.

لفّتها الكلمة الأخيرة في كفن القلق والخوف، فكن متوترات لدرجة أنه لم تفكر إحداهن في أن يأخذنها الى المستشفى، أو يجلبن لها طبيبًا ليفحصها، كن في هم واحد وهو أن لا تصيبهن فاجعتها بسوء، وكأنما بعث إليها ببشارة قالت إحداهن باطمئنان:

- دعنا نقرأ الرسائل أيضًا، فسيتبين لنا بعد ذلك ما هي المسألة وما حقيقة هذه الفتاة.

- هذا في حال إذا كانت قراءتها ممكنة؛ فقد سكبت الكثير من النفط عليها بحيث يسيل من تحتها. ومن حسن الحظ أن أعواد الثقاب كانت بعيدة عنها وإلا كنا قطعنا الأمل حتى في هذه.

- لا أعرف من كان على علاقة بها، كيف لم يعلن عنها في كل مكان، فهي كانت تتحدث كثيرًا عن نفسها كشخص متمرد؛ كانت تتوسل العشق بعشرة أضعاف ذلك. كانت متضايقة دائمًا أنه لا تعبرها إحداهن ولا توجد إحداهن حتى في عمرها هذا لتعير اهتمامًا لعاطفتها. أتعجب كان يجب أن يعلم العالم كله بهذه العلاقة، حتى حين كان أساتذتنا الرجال يتكلمون معها كانت تفهمهم بشكل آخر وترد عليهم، كانت هائمة دائمًا وراء عاطفة غامضة، مع الأسف حتى حين كنا أطفالًا في المدرسة والمعلم يضربنا، كان يزيد من ضربه لها بعصَوين.

كل في زاوية أصابتها قراءة الرسائل الضائعة فتبللت أعينهن، كن مستاءات أكثر من أي وقت من ذلك العشق والامتداح به، ولم يجدن شيئًا يكون سببًا له، ولم يجدن شيئًا يعبرن به عن استيائهن من أنفسهن أو أن أحدًا آخر هددها، لذا كن يشرن برؤوس الصمت وعيونهن الممطرة، وبقدر ما كن مستاءات لموتها، كن ينتحبن أكثر لهذا الشاب العاشق الذي كتب هذه الكلمات ولم يصل إلى نتيجة، إحداهن تعجبت أكثر من البقية حين

رأت كتابًا على المنضدة، كتاب البشائر. جلب سيرة هذا الكتاب كان كصلب المسيح لديهم لم يتعلم الكلام بعد. لأنهم لم يروه ولو لمرة واحدة يقرأ كتابًا؛ فما بالك بكتاب سماوي، أسرع في تلقفه وفتح صفحاته، وقال بإيقاع الحزن نفسه: «البائس لم يكمله، وكعلامة لمكان توقفه وضع ورقة في وسط الكتاب» وبعد تمعن أكثر قال مرة أخرى بصوت عالٍ: «ليست ورقة وإنما رسالة طويلة... انتهى... وهو الخط نفسه الذي كتب به بقية الرسائل وتعابير الشرائط».

وعلى الفور لم يلبث حتى يتكلم أحد آخر غيره، فقرأ الرسالة بصوت عالٍ:

«صدقوني في البداية لم أرتكب ذنبًا، أكثر من ذنب أبيض غارق في البراءة ولم أسوِّد أية زهرة، كانوا يقولون لي دائمًا: عابدة الرجال أو خائنة أو حاقدة، ولكن لم يكن ذلك من اختياري، بل لأنهم لم يكونوا يهتمون بي، وحين كنت بشغف إلى أحد، كان يدير وجهه عني باشمئزاز ويفتح جميع أبواب قلبه وأحاسيسه وعينيه لشخص آخر، لهذا كنت أبقى بلا أمل، وتظلم الدنيا في عيني، والحقد ينخر أحشائي، لهذا كنت أقتفي مصير تلك الفتيات وأنتقم منهن، الانتقام من جميع اللحظات، وجميع الآهات والضحكات والمزاحات والمواعيد التي حرمت منها جميعًا، والنجاح في هذا بالنسبة لي كان سهلًا، خاصة في هذه المنطقة الموبوءة بالمعادلات الضائعة والخرافات، لم يكن عليّ سوى أن أضع إصبعي في عنق حيائهن، وكل تلك الإناث اللاتي يرغبهن الناس، أولئك الإناث اللاتي مهما تبرجت في عيون الورد، كنَّ بغمزة عين منهن يمنحنني اليأس؛ لذلك كنت أقبض ببراثني على حيائهن ولم أكن أفكها حتى أشلّهن. كنت أظن أن قلبي مربوط بنابض تمسك به عرافة في طرفه الآخر فتسحبه بقوة ثم تدعه؛ يقرأن لي مصير حياتهن، فكان قلبي يضرب مثل لكمة على صدري وتحت ثديي، فلم يكن ذلك النابض يرتخي إلى أن أنفذ إحدى تلك الخطط الشريرة، فكنت أظن أنني قد كسرت الحصار وانتهى، يا لمنية الروح حين كانوا يتحدثون عن جمال وغنج إحدى الفتيات، وأحد الذكور يروي لي هيامه وحرقته لإحدى الفتيات حتى أذهب إليها وأوصل رسالته إليها من منبر بعيد، فكنت أذهب وأنشر لها دعاية مغرضة، أعصر بها آخر قطرة من حبها وجمالها.

في البداية عذبوني في المدرسة، حين كان الأساتذة يعطون البقية درجة أكثر مني، أو يبادلون الأطفال الحلوين ابتسامة، فكنت أصل على الفور إلى المدير وأقول له ما لا يقال، وإذا لم يفلح الأمر، حينها كنت أذهب

إلى آباء وأمهات الأطفال وأنجح في مسعاي. بهذه الطريقة جعلت آباء وأمهات الكثير من البنات يخرجون بناتهم من المدرسة، ولكن في المعهد، تغيرت نظرة الناس وآراؤهم عني بسبب ذلك، وقاموا بطردي ومنعوني من دخول المدرسة... أتذكر... نعم سأتذكر، لأن تصرفاتي تلك لم تكن دون وعي، بل كنت في البداية أضع لها خطة، بعد ذلك كنت أنفذها فكيف تمحى من الذاكرة.

أفشل خطة من خططي التي ما زلت مقهورة بسببها، أو لنقل أجرم خطة وضعتها كانت ل «بروشة» ذات الجمال الأسطوري، كانت معروفة في المعهد بأجمل وأذكى وأنظف طالبة، كان كل حاقد يهين الناس باسمها، أوسم شباب المنطقة كانوا هائمين وراء عينيها الخضراوين المليئتين بالأسرار، كانت عيناها تشبهان عيني القطة التي جعلني والدي قربانًا لها بسبب أنني قذفتها بفردة من خفيّ وأبعدتها عن مائدة الطعام، فتفل عليّ ونهرني وسد نفسي عن الأكل، وقال لي: «أيتها المنحوسة المطعجة الوجه، هذه القطة أفضل منك ألف مرة، يا ليتكِ كنت قطة وليس هذا الشيء القبيح» كانت كلمة القبيح ترن في أذني فكان رأسي يتضخم وشعوري ينقص. بكيت في ذلك اليوم وتلويت من الألم حتى الظهيرة، كنت أشم تلك الأشرطة التي أيقنت تمامًا أنها نزلت إليّ من قوة وفراسة أحلامي، كنت أشمها وأقول: «أنت فقط منقذتي، أنت فقط تستطيعين إنقاذي من تعليقات الناس، وتمنحينني مثل بقية الخلق حق أنوثتي». كانت حرقتي ونواحي يشبهان قرقعة تلك الظهيرة التموزية الساخنة، التي سلموا أنفسهم للنوم بسببها، أوصلت نفسي إلى تلك الكومة من الحطب التي كانت القطة ذات العينين الخضراوين ولدت ثلاث قطط صغيرة من تحتها، وقد أخرجت الأم رأسها من تحت الكومة، مغمضة عينيها، فاقتربت منها بهدوء شديد ووضعت قدمَيّ على تلك العصا التي كانت على رقبتها تمامًا، طبقت رجلي أكثر عليها فكانت تخرج صوتًا مثل أنين المرض وتحفر بمخالبها على الأرض، وبسبب ضيق مكانها لم تقدر على الحركة فاستمرت في حركة مخالبها وباتت القطط الصغار تنوء بوهن وتحت رحمة مخالبها الحادة، أطبقت عليها أكثر حتى فطست وفتحت عينيها الخضراوين، خرج لعاب ثخين من فمها وأنفها، وخرج لعاب دموي من أذنيها. ثم أخرجت القطط الصغار الثلاث، التي تمزقت ظهورها بفعل مخالب أمها، وضعت الحبال في أعناقها وعلقتها على حبل الغسيل وبقيت واقفة قبالتها حتى اختنقت، ثم فككت الحبال عنها ورميتها تحت كومة الحطب مع أمها.

وعينا «بروشة» كانت مثل تلك العيون التي جذبت آلاف الشبان إليها،

وكان قلب «ريباز» أيضًا من بين تلك القلوب التي تحترق لحظة تلو أخرى وتنسكب على نفسها، كان يجوب الأزقة والشوارع مثل المجنون من أجل نظرة منها، من كثرة تركه للمدرسة لم يكن يقطع صفًا واحدًا بثلاث سنوات، ويجلس أمام نافذة قسمنا، وهي بدون أن تعير له اهتمامًا، تتبادل فراشات الرغبة تعابير المستقبل مع ذلك الشاب الذي كانت تتمنى نظرة منه، وحين كان ريباز يرى ذلك، يحمرّ وجهه العبوس أكثر ويتشوش نظام خطواته ويتلعثم لسانه، فكان أصعب شيء هو حين بحنا بآلام قلبينا لبعضنا البعض، وودعنا عقدها عند بعضنا؛ فخططنا للتفريق بينهما، أو بالأحرى أنا التي تخطط وهو عليه التنفيذ، وحين رأيت أنه أراد أن يبعد ذلك الشاب بالقوة فلم ينفع، بعد ذلك التجأ إلى خططي الجهنمية، فكنت أحس بوجودي ويصيبني الغرور.

في البداية اقتربت من بروشة، قدمت أمامها دراما بشكل عدلت لها اعتقاداتها الخاطئة، وبعد أن باتت تثق بي تمامًا، حدثتني عن كل أسرارها، حتى عن شكل جسمها والشامات الموجودة على جسدها الغض الأبيض، بعد يومين من بوحها بأسرارها لي، وحسب الخطة ذهب ريباز إلى ذلك المقهى الذي أمام المعهد حيث جميع الطلاب يمرون من أمامه، ويجلس بالقرب من والد بروشة ذي الرأس اليابس والقبلي، فيبدأ مع صديق له بالكلام فيحدث ريباز صديقه عن مغامراته العاطفية وقضاء أوقاته اللذيذة مع فتاة، وحين تخرج بروشة من المعهد متوجهة إلى البيت، يشير إليها ويقول إن هذه هي الفتاة، ويدعي بإقامة علاقة عاطفية معها وأنه فعل كل شيء معها، ودليله على ذلك أن هناك وشمًا على فخذها وهذه الدماء المسالة، وفي هذه الأثناء يخرج ملابس داخلية بيضاء عليها بقع دم للعادة الشهرية كنت قد احتفظت بها، وأنتم تعرفون أن تلك البقع الحمر هي دليل على حكمتنا ولا تجرفنا السيول بسببها.

فيثور والدها مثل الحليب الفائر وينسكب على نفسه، يحترق مثل شمعة وينسكب تحت مقعده حتى تظلم الدنيا أمام عينيه، فيشهر مسدسه على الفور، إلا أن ريباز كان قد أعد نفسه مسبقًا للهروب، فلا يبقى بين يديه أحد؛ فيعود مسرعًا إلى صيده المقيد في البيت، فينقض على بروشة ويفتش جسدها إلى أن يجد الخال على فخذها، فيبردها فورًا بطلقة واحدة ويبرد قلبه بهذا.

بعد ذلك كان ريباز يبعث لي يوميًا برسالة تهديد دون أن أعرف مكانه، فخفت أن أذهب إلى المعهد لفترة طويلة إلى أن انقطعت نهائيًا عنه ففصلوني منه، والآن ريباز هو ذلك المجنون الذي يجوب شوارع السوق

والمدينة ويقول: «على ماذا تتقاتلون، فليس لكم خالات... لماذا إذن تقتلون بعضكم... لماذا تتقاتلون؟».

وأخيرًا؛ الشيء الوحيد الباعث لي على السعادة وعشت معه فترة من الزمن، كان تلك الرسائل المليئة بالتهديدات المرعبة، إذ كنت أمزقها فورًا ثم أكتب لنفسي مكانها على تؤدة، رسالة مليئة بالفخر والعشق، أو أكتب سطورًا على تلك الكاسيتات، فلم أر أي حب من أحد أبدًا؛ لذا لم أقدم حبًا لأحد».

أيار (مايو) ١٩٩٧

الفتاة الحرة

أمسكت بلا مبالاة بجعبة ثقيلة ثقل هموم كل البشر، تتجول من محطة إلى أخرى، وتريد التعبير عن هموم البشر بالكلمات، ارتفع بخار الكلمات ومعه التصفيق والاستحسان، وحين أصبحت الكلمات جملة ثم مقطعًا وبعد ذلك صفحة، قالت لها أقرب صديقاتها:

- أنتِ لا تعيشين لنفسك ولملذات الحياة؛ لهذا فنحن من هنا سنودعكِ.

* * *

جمعت صفحاتها بلا مبالاة أكثر، أصبحت شكاوى تلزم تلابيب المضطهِدين، أصبحت رسائلَ، كتبًا، جعلت المنابر منازل للصراخ الأبدي، جعلت من المساواة والمرأة شعارًا، تناقش هموم نساء كل العالم في بيتها، المرأة... المرأة... المرأة و...

في يوم المرأة اتهمتها مجموعة من النساء بأنها امرأة غير تقليدية ووجّهن إليها تهمة كسر التقاليد، على أساس أن المساواة التي تطالب بها هي كثيرة عليهن.

* * *

تجعل من أدعيتها صراخًا جماعيًا للإنسان، ضد الرجعيين ومضطهدي البشر، مضللي الإنسان.. هذه المرة بحجة أنها متقدمة على شعبها بعدة سنين ولا تتقدم مع تيار التقدم التاريخي لأمتها؛ تصرخ فتكمم فمها، ترفع هامتها فتضرب على رأسها، تخطو فتحيط برجليها الخيوط، يعرضون إليها على المنابر بالملعونة، بحجة أن التقدم الذي تنشده مأخوذ من الدول الغربية الكافرة.

وبشكل طائش تتعرض للقصور الوهمية، وتحلل الوضع في نفسها بأن «ترك هذا النهر المكدر، أفضل طريقة للتعبير عنه».

* * *

منذ زمن لم ترسل بتحياتها إلى تلك المدينة، التي تغسل وجهها بعشقها، الآن تحتضنها مدينة خضراء، تقول لها إن كل آرائكِ مقبولة. ها هي بلاد الحرية والمساواة التي تتحدثين عنها؛ تفضلي هذا منظر البحر الجميل الذي كنتِ تتمنينه، تؤخذ إلى مقربة من البحر ومسبح مختلط، مثل عناقيد العنب فيه رجال ونساء عراة بشكل متساو.

كل الناس ينظرون إليها فتنتابهم ابتسامة، لأنها الوحيدة المحتشمة في وسطهم، يدفعون بها مرارًا إلى باب الحمام لتغير ملابسها مثل بقية الخلق وتذهب إلى شاطئ البحر مثلهم، إلا أن جهودهم باءت بالفشل، وفي النهاية

تكون مجبرة؛ تلبس بدل المايو (ستريج) وتيشيرت للمسبح، في البداية أسكت التعجب الجميع، إلا أن نظراتهم المليئة بالمعاني أحرجتها كثيرًا لدرجة أنها نسيت السباحة من الخجل وكادت تغرق، أنقذت من الغرق في المسبح، بيد أن تعليقات وضحكات صديقاتها الجديدات أصابتها بالغرق الحقيقي للنفس، حين سمعت إحداهن تقول:

- هذه المتخلفة تطالب بالمساواة، وهي لا تجد مكانًا لنفسها في وسط المساواة؟

- يا ستي هؤلاء لن يصلوا إلى حضارتنا بمائة عام أخرى، فهم إلى البارحة كانوا يعيشون في الجبال.

اثنتان من صديقاتها اللتان كانتا معروفتين كمناصرتين للإنسانية ومناهضتين للعنصرية في بلادهما، تأخذانها إلى مقهى كان يبعد عن البحر بضع خطوات، وهناك يجلسن مع بعض الأشخاص المعروفين بالمتمردين في تلك المدينة، بعد التعارف قدم لها أحدهم سيجارة:

- لا أدخن شكرًا.

أحد آخر منهم يتدخل:

- صحيح أن التدخين مضر بالصحة، ولكن على المرأة المثقفة أن تتعلم التدخين مثل أصدقائها حتى تدخن معهم خلال الجلسات الثقافية لكي لا تبدو غريبة بينهم.

بعد لحظات جاء النادل وأعد الطاولة لهم وسألهم عن طلباتهم، فطلب كل منهم زجاجة بيرة، وطلبت هي كوبًا من العصير، فبادر اثنان منهم بمقاطعتها، وكأنما قامت بشتمهم:

- لا يجوز نهائيًا، أتخافين أن نرد لك الدعوة، لا يا سيدي هات لها بيرة.

- اعذروني فأنا لا أحتسي المشروبات.

- ولكن لا يجوز يا سيدتي، أنتِ شخصية مثقفة وتناقشين لعدة ساعات في وسط نادٍ مثل هذا؛ فلا يمكن أن يكون كل ذلك مع كوب عصير.

في هذه الأثناء ترفع رأسها، فترى امرأة مكسوة بالحجاب من رأسها إلى أخمص قدميها جالسة قبالتها، تزيح المرأة طرفًا من حجابها وترتشف مشروبها: «يا للهول، عندنا لو تحدثتَ عن هذا المنظر الذي رأيته بأم عينيك، سيسفك دمك، عجبًا فأنا أطالب بالحرية لها، في حين أجدها حرة أكثر مني وأشجع مني!».

قطع حوارها الساخن مع أصحابها هناك، وعادت إلى عالمها الحاشد، فرأت أن كل واحد يتحدث عن مغامراته وعشقه، فاصفرّ لونها، فهي ليس لديها ما تقوله، فقط تفكر في أن لا يسألها أحد شيئًا بهذا الخصوص، حتى

لا يتكرر إحراجها مرارًا وتكرارًا، ولكن أمنيتها لم تدم طويلًا حتى سألتها هذه المرة إحدى الفتيات:

- وبماذا تتحدثين لنا عن نفسكِ، أحاديث عن العلاقات العاطفية الحقيقية أم الوقتية؟

- أنا؟... أنا... في الحقيقة لم أمرّ بهذه التجربة، مع الأسف عندنا حتى الحب الحقيقي يعتبر جريمة، وليس الحب الوقتي الذي ليس له وجود أصلًا.

الضحكات تملأ القاعة، ولكي يثبتوا لندماء النادي أن ضحكتهم هذه كانت دون إرادتهم، طلبوا الصفح من النادل الذي مر بجانبهم، بعد تلك الضحكة كانوا ينظرون إلى بعضهم بطرف العين، وبعضهم كان مستاءً من كل تلك الآلام والاضطهاد وانعدام الخبرة التي رأوها في إنسان، حتى قال أحدهم، كان أكبرهم سنًا:

- لماذا يا ابنتي، ألست أيضًا بشرًا مثل بقية الخلق؟

تغرورق عيناها بالدموع وتتصنع القوة حتى لا تنزل، إلا أنها تنضح من داخلها، ولن تجففها حتى الاسفنجة التي في يد النادل، في البداية آثرت الصمت، لأن الكلام كان دائمًا قضيتها، فالكلام الذي كان في بلادها يحلل بالخطأ؛ تراه الآن أيضًا يحلل بالخطأ هنا، فتقول بقلب ينضح:

- نعم أنا بشر، بشر محمل بكل آهات الشرق... أنا بشر امتلأت آفاقي بتقيؤات أشخاص متهمين منذ الأزل بتاريخ البشرية.

الشام، ٨/٢٠٠١

الانسحاق

الخطوات متأخرة.. متأخرة!

أنا قاصد وراء سحر فيروزي

لا تندمل جراحه...

لا يندمل مكان الجرح الذي أحرق منذ زمن خصلات شبابكِ، وخنق أنفاس روحكِ الشبيهة بالسنونو في فضاء اليأس، لوحة ملامحكِ من كثرة وجود خطوط التمرد وحياة البؤس عليها، تشبه خارطة الآلام، وجدائلكِ البيض هي إطار تلك الخريطة.

منذ زمن.. ونظراتي متوقفة على محياك اليائس. منذ اللحظة التي دخلت هذا المحراب، تلك الملامح التي تعكس حزن الممطرة، كانت تودعنا لأساطير الصحراء وجروح دون مرهم ومنطقة مقفرة، تجذرتِ على الأرض الرطبة واتكأتِ على الأثاث خلفكِ، ونظرت حولك بشكل غريب، صورة السنين الماضية الطويلة، في تمعن عيون أصبحت آهات ذات دخان، على ملامح تلك الفتاتين اللتين لبستا بهندام وكنت جالسًا بينهما، فبدتا منزعجتين من جلوسك بينهما، كنت سببًا لعدم تمكنهما من أن يمسحا برجليهما على أرجل بعضهما كالسابق ويتبادلا الابتسامات، عدا عن استغرابهما من كيفية جلوسك، الكل كان يتبادل النظرات وتنتابه ابتسامة. أما حين نزعت حذاءك الجلد ونثرت رائحة رجليك النتنة في البناية، فقد غادر الكل ذلك المكان وذهب كل واحد منهم إلى جهة، وبسبب أنك كنت دسست أنفك بنبتة الريحان حتى أن فرع ريحان صغير تبرعمت عليه الزهرات الزرق الصغار؛ لهذا لم تكوني تحسين بها.

تيار ألم موجع يوخز صدرك، وعلى مهل تفركينه بيد التمني، وبحجم خياشيم صدرك شهقتِ شهقة ضبابية: «كيف أسأل؟ وكلامي ليس فيه أي حكمة... كلما جئت إلى المدينة أسمعهم بخطوة من بعدي يقلدونني... ما لنا نحن وهذه المشكلات والرحيل من مكاننا».

- أخي متى يأتي دوري؟

وهو في حضور سبحة يهمس في حباتها ويودعه بهزة رأس إلى الانتظار، هذا المنظر ورطك مرتين في لعبة التجوال داخل الغرفة، إلى أن أضاع ملاحظاتك من الشباك إلى الخارج، وحط على منظر دكان المأكولات قبالتك، لم تكن روحك دعاءً يؤمن غذاء يومين لأطفالك. «يا لها من نعمة، وأنا أكابد لكي يعطوني حفنتين من حصة الأرامل، يدفعونني، هذا يقول لي لست في هذا المقر، وذاك يقول لم تأتِ بسرعة».

منظر شاب وفتاة احتضنا بأيديهما كتفي تجوال المساء، أسقط من عينيك منظر الدكان: «خمس بنات... معيشتهن تحلو بالكلام فقط في هذا الزمن الصعب، قلت سيأتي أخي البكر ويزوج إحداهن لابنه فلم يأتِ، ولست أقولها كمبطر ولكنهن لسن بذاك الجمال أو يعرفن أن يلبسن مثل هذه حتى يأخذن لباب الناس، حبذا لو عدتم إلى بيوتكم حينها كنت سأتنفس الصعداء؛ دون وقوف وضعت يدك على الأرض، وعيناك تدوران على الخلق، كان قلبك يقول كل شيء عدا التفاؤل، وكلما دلفت امرأة محتشمة كنت تتمعنينها بعينيك وتخفين أطراف ثوبك الرث، أما حين دخل شاب يلبس ملابس كوردية أنيقة، جفلت من مرور تيار بارد في جسمك، وطار على دموع عينيك نحو عالم من الذكريات والشقاء، طرتِ فوق سماء تلك القرية التي كنتِ تحاربين في زمن ماضٍ مع النيران، كنتِ تشمين رائحة البارود، والأدخنة الكثيفة مثل الليلة الحالكة تلبغ القرية بكاملها، كنتم قد نسيتم اللغة كي تصرخوا بها، انجرفتم تحت هجمة غاضبة نحو الصحراء، كانت ذاكرتك مسجلة بأنكم قابعون منذ قرن هناك، وهناك في طريق ذي أربعة اتجاهات للغربة تهت من نفسك، كنت تبحثين عن خطوات البداية، عن قطرة ماء، تائهة بسبب معدتك التي كانت تكفر لكسرة خبز، كنت تريدين العودة إلى اللعبة التي يعلم الأطفال المشي، رفعت رجلك لممرات الصباح، حين رأيت الأقفاص المفتوحة لباطن الأرض، الأقفاص التي كانت تمتلئ بظلال العائلات المختفية والناس المختفين، وبين خاناتها كانوا قد صنعوا من حمالات صدر النساء ثلاثة حبال للغسيل، والأكمام الطويلة لأثواب النساء كانت مربوطة ببعضها وجعلت منها ثلاث ستائر، يبدو أنهن تركن في عنق ذاك الجحيم بكارتهن، ومجموعة تلو الأخرى توضع في الآلات الوهمية للقدر، الحفر التي كانت تنتظرهم فيها تفاحة القدر، كاد يطمر جميعها، حتى وصلت إلى الحفرة الأخيرة، كانت أعينهم تنهمر: سود، خضر، بنية، زرق، عيون لشيوخ وشباب وأطفال، خصلات شعر النساء ملتصقة برؤوس الرجال وشعر الرجال ملتصق برؤوس النساء والأطفال، هناك رأيت جثة ابنك الوحيد، خنق برباطة ظهره، وكان أبوه ميتًا خلف ستائر الأثواب من كثرة ما أطبق بأظافره على الأرض للوصول إليه، بغمضة عين كل هؤلاء أصبحوا تحت التراب، وعلى مقربة من هناك كان هناك معمل، جمع كومتين كبيرتين من الأظافر والأسنان يقوم بطحنها ويملأ منها ظروف المدافع الفارغة...

حين أعادتك رنة التلفون إلى وعيك، أفرغت ما في خشميك من ماء وأشرت بإصبعك السبابة إلى الأرض: «نحن متنا هكذا ونعيش هكذا». ثم

ربطت بمنديلك الذي بلع لون رمادي قذر لونه الأبيض جبينك وبطرف منه مسحت به دموعك، بعد ذلك علقت عينًا على الباب الذي أمامك، وبالعين الأخرى كنت تبادلين النظرات مع الشمس الصفراء. «يا ترى كم ساعة باقية على النهار، يجب أن أصل إلى البيت حتى لو تطلب الأمر أن أضع جناحين، فلمن أودع بناتي الخمس الوحيدات؟ فإذا لم نخرج مع طلوع الفجر، لن يكون هناك زاد في المساء لنأكله، وحتى المساء ننظف الحقول والبساتين مقابل أوقيتين من الحنطة، وها أنا ضيعت ذلك هنا دون أن أستفيد شيئًا».

شخصان ضعيفان كانا جالسين على الأثاث الواقع خلفك، نهضا وأرادا الدخول، فهممت بخطواتك قبلهما، أردت بيان انتظارك منذ فترة ليساعدك في الدخول، ولكن حين رأيت أن أحدهما يتلاعب بمفتاح سيارته المتدلي على خاصرته، والآخر يرتب ربطة عنقه وعيناه على زاوية أخرى، خجلت من حالك وانطفأ بريق عينيك، ورجل سمين أصلع دس شيئًا في يد الرجل الذي كان يتمتم إلى تلك اللحظة، وقعت تحت رحمة الضجر، ومظلة الغربة فتحت نفسها على قامتك، فباتت عيناك مثل طائر بلا عش تبحثان عن مكان آهل: «ومن أعارنا اهتمامه كي تهتم أنت بنا».

- هؤلاء جاءوا من بعدي، لم يعد للنهار شيء، عجبًا لن يبقى.

- ليأتي نوبتك.

في هذه الأثناء، كنتِ تقلبين البطاقة التموينية التي نظمت لك منذ سنتين ولم تستلمي بها شيئًا، علاوة على نثر الأنفاس الباردة:

«ايه؛ يا لون القدر، تطلب العون من مملكة الكذب والشر والسرقة والملامح المختلفة، المملكة التي لا تصنع التماثيل لتعبدها؛ بل التي تبيع الليل للنهار والنهار لليل... لا يفيد إذا لم تحدوا أظافركم» لا أدري عن ماذا سأل، فقلت في جوابه:

- لن أطيل كثيرًا، دعني أدخل، أول مرة جئت كتب لي فحص الدم، ثم يكتب لي الأدوية كل شهرين، ويقول لي إذا لم تشفي، عودي إليّ مرة أخرى.

سحبتك الخطوات إلى تلك الغرفة، كانت موجات آلامك تتلاعب مع روحي وتثقب غشاء دماغي، لا أحضان جذور الأشجار ولا حنان الأعين المبحلقة داخل المبنى تخفف شيئًا من همومك، لذا بعدك انبعثت كلماتي في غرفة الطبيب.

«حينها كانت قوة شمس السماء تسكب عرق الخجل بزجاج النوافذ، يبدو أن الاشجار المزروعة على ناصية الشارع قد فتحت براعمها الخضر

من أجلك، يبدو أن الشمس خجلة من المواقف، وهي خجلة منك من خلف تلك الجبال».

لا أدري كم من الوقت مرَّ حتى علمت أن الطبيب بسبب سوء حالتك الصحية، لم يأت من قلبه أن يقول لكِ إنك مصابة بسرطان الثدي، وإن المرض اختلط بدمك، فقط سمح له قلبه بأن يحصل منك كل شهرين هذا المبلغ من المال.

نزلت مواقفه الميؤوسة على سلالم العدم، أصبح هذا المنظر فحم رموش عينيك المغرورقتين، وأنت لففت خرقة حول ظهرك بدل الحزام، لكي تسرع في خطواتك، فتنفست نفسًا تفاؤليًا و... الخطوات...

الخطوات...

الوقت متأخر... متأخر

أنا طيور سنونو السماء

من أجل زمهرير الشتاء

ومرهم جرحي البليغ هذا

أريد خطواتك.

٣/١٩٩٦

الرسائلُ التي لم تُقرَأ قبلَ الموت

١

حبيبتي دلارام

أين أصل إليك وأنت خطيبتي السمراء ولا أجدكِ إلا في ليلة مقمرة، ولكن لتعلمي بأنني الآن أبلغ سبع وعشرين تسعة أشهر ويوم اثنين واحد، وكما تعلمين فأنا هادئ وأستطيع الدفاع عن نفسي وجميع الحمامات المهزومة، ولكن ليس لدي وقت لكل هذا، لأن عمري مثل مطرة خريفية فصوله قصيرة وهو أحلى من أن أفسح مكانًا فيه لكل «هؤلاء» ولكن بما أنك جزء مني، أقول لك: «لقد رأيت اليوم أشخاصًا من تلك المجاميع الخاسرة، التي ليست لديها أغنية تسمى النزاهة، لا يستطيعون التقاط الصور الجميلة للحياة؛ ولا الحياة تتقبلها بكل تلك الوساخات، كانوا في مكتبة المدينة منشغلين، يخرجون كل جملة جديدة ومفيدة ويضيفونها إلى بعضها البعض، وهكذا فإن ترتيب الكلمات والجمل في جعبتهم كان يبدأ من هناك، ثم بعد ذلك كانوا يقذفون بالكتاب من على المنضدة، وتحت المنضدة التي جعلوها تحتهم كانت المنضدة تنقع تلك الكتب وتخفف أصالة تلك الجمل إلى الأبد والتي كانت ضاربة جذورها منذ القدم، وهكذا بدأت عملية السرقات والتبول على النفس من هناك، ثم خرجوا إلى الحديقة وأمطروا الأشجار والورود والنباتات بالبول، ولكي لا ينكشف تبولهم، قرروا أن يجعلوا كل الأشياء والطبيعة والبشر أيضًا بوليًا، في البداية اجتمعوا ليعرفوا كيف يحاولون أن يجعلوا من أنفسهم أبطال أحلام كل فتيات المدينة، فطرزوا أنواع القصص التي كانوا أبطالها وأدخلوا أنوفهم في كل شيء في حياتهم، وأخذوا ذلك من تلك التجارب التي لاقوا فيها نجاحًا، وهو أن يتقربوا من عقول أمراء المدينة ويظهروا أنفسهم أمام أنظارهم بأنهم هم الأبطال، ومنذ ذلك اليوم يأخذون ناصية الشوارع الرئيسية للمدينة في كل صباح ويتبولون على الناس، وفي المساء يذهبون إلى كازينو «الحكايات التي لا تنتهي» ويقصون حكاياتهم المفبركة.

عزيزتي دلارام، الآن تفوح من المدينة رائحة بول التماثيل القميئة، وأنا في ركض دائم كي لا تصبح رائحتي بولًا، لهذا لا أريدك أن تعودي مرة أخرى أبدًا للتنزه في تلك الشوارع البولية، من أجل ذلك قلت للذين كانوا يريدون جعلي جسرًا ليربطوا عقدهم النفسية بالواقع: بما أنك حلم جميل ونزيه وكل الأحلام الأخرى تبطل أمامك هكذا، إلا أنك حين تشم رائحة البول؛ سأقول لك...

٢

المحترمة الأستاذة دلارام...

سيدتي هناك سؤال يؤرقني كثيرًا، وهو متعلق بمستوى مفهومنا للحياة وتحليلنا لقيمها. أستاذتي المحترمة، أعجبت بأحد الكتّاب العالميين من كثرة نصرته للإنسان، يقول: «يوميًا أصرف الدينار الذي عندي إلى عشرين قطعة من فئة خمسين فلسًا، لكي أمز من أمام المتسول عشرين مرة، وأساعده عشرين مرة، وأفرحه عشرين مرة». عجبًا فأنا منذ سنين أنتظر شخصًا مثل هذا الأستاذ كي يأمل به البشر مثل هذا المتسول، ويجمل المتسولين بقدر الناس الآخرين، حتى لا يشكل لدي نقطة شك، عدا عن شخصكم، إذ أفعالك ونتاجاتك تطمئنني من إنسانيتك، ولكن الذي أصابني بالقلق هو أنني البارحة مررت من أمام أحد تلك الملاجئ التي تحكى فيه القصص المنسية، كان ممتلأ بمدمني مادة مسح الحسد وحب الموت والقباحة، أحدهم كان في عمرك ومن الذين يلقبون أنفسهم بعباقرة المجتمع ويعرف في المجتمع بالذئب الهرم، جمع حوله ثلة من مغامري المدينة وفكاهييها وأشخاص مشوشين وكانوا متحمسين ويعمقون عاطفة التعصب إلى المنطقة والمحلة وحتى إلى الزقاق، عاطفة التقيؤ على الناس والطرقات المبولة، في البداية الكثير منهم لأنهم ظنوا أنهم يقصون حكايات الذكريات المنسية ويعيدونهم إلى أقاليم الحياة، تلك الأماكن التي نسيتهم استحسنوا ذلك، ولكن هذا الشاب جمع هؤلاء لكي يفبركوا نكاتًا على أناس لم يصبحوا مبولين حتى الآن، آخر الاختراعات أصبح كتابة النكت على الناس وعلى نتاجاتكم وليس مهمًا على أي الأعمار أو الكفاءات يكتب، المهم أن يقول الذئب الهرم بأنه موجود حتى ولو بكتابة النكت، ولكن لا تهتمي وكما تقولين جنابك: الكبير ليس بالعمر، بل كبير في ذاته، لذا فالكبير الصغير سيبقى صغيرًا.

٣

صديقتي العزيزة دلارام...

صديقتي المحبوبة، انظري كيف ندوس على قلوب بني جنسنا، كانت البارحة حديث ثلة من نساء العصر: «لا تنسي اللاتي تفوح منهن رائحة البول» مع اللاتي صياحهن صم أذن السماء، كنّ يتهمن الأرض في الأسفل بالجاني؛ وخلف الستائر السميكة لقلوبهن ذبحن شرف نصف النساء، وعرقلن النصف الآخر، وخططن للإيقاع بنصف آخر، ويا لي من لحوحة يا دلارام، فأول ما فتحت فمي وعلمن بأنني لا أنسجم معهن، ورطنني بآلاف

المشكلات، وصففن عشرات التماثيل الصغيرة ليخرجوني من الطريق، ومسحن بي كل آثامهن الغبية عن طريق ذكور ببغاواتهن، حتى نصبح جميعًا متساوين في آثام الحياة، لكي لا... في المستقبل... على كل حال يبدو أن آلامي ستنسيني آلام الفتاة بائعة الخبز.

ليتني أراكِ في القريب العاجل، حتى أروي لكِ حكاية الفتاة بائعة الخبز، التي أذاقوها الأمرّين لا لشيء، إلا لأنها كسرت خاطر ببغاء ذكر... أرجو أن أراكِ غدًا عند الأصيل لأن هذه الحكاية تتعبني كثيرًا.

٤

الثوري القديم السيد دلارام

تحية ثورية

بعد أن علمت أن سيادتكم شخصية تحافظ على نفسها من جميع الأخطاء والموبقات الحياتية وتتعاملون بحرص شديد مع إيقاعات التاريخ، لكي لا يصيبكم فجأة ودون وعي منكم أي أثر سيئ بتاريخكم النزيه؛ فنحن نعلم أن حبك لأمتك ورحابة صدرك هما اللذان جعلا من جميع دلارامان المدينة محبوبين ومحترمين، لهذا فإنني سأسأل دون وجل، ذلك السؤال الذي كنت حفظته في قلبي سرًا، لأنني أعرف أنك لست بذلك السياسي الذي ينظر إلى جدول أعماله ويرى نفسه مشغولًا وليس لديه فراغ، لدرجة: السبت لديه: عملية قيصرية لفتاة يافعة ضحك عليها باسم الحب. الأحد: أمام مجيء أرملة في المساء وتقيؤ ذئب جائع أظلم ذلك المساء. الاثنين: أم شهيد يفتح نوافذ الرجوع عن الكلمة أمامها. الثلاثاء: رواية حكاية النفاق وملحمة البطولة مصطنعة لكوكبة من الفتيات. الأربعاء: مجموعة من الثوار الحديثين يتشاجرون على عدد معشوقاتهم. في أول بدايات الخميس لغاية آخر خميس لهذه الكلمة جرب معي بطل مهزوم من أبطالكم نعيق كل الضفادع المهزومة ليوزع شبابي المذبوح على حوافر أحصنة العشائر. لذا، من هنا أسألك سؤالي، إذا كنتم غير مذنبين وليست هذه من أعمالكم، فلماذا إذن تسكتون حتى الآن؟ وكيف تستخدمون السياسة؟ خاصة وأنه لم يبق يوم واحد نظيفًا في الأسبوع في المملكة وفي أي يوم تضعون جدول أعمالكم؟

٥

عزيزي دلارام...

ابني الطاهر والذكي دلارام، كم كنت أحب الآن أن أحطم أمام مرآة

عينيك إيقاع كل الألحان الركيكة وأعلمك ألحان السعادة. كم كنت أحب أن تظل طفلًا صغيرًا، وليس طفلًا كبيرًا، كم أخاف أن تكبر، لأنني أعرف أن مثل هذه الطفولة تجعلك كبيرًا مخيفًا. الكبر الذي سيأخذك إلى كازينو الحكايات غير المنتهية وهناك يجعلك تصبغ أحذية تلك الأسود، المعروفة بالأسود أصحاب الأحذية. تروي الجدة أن هؤلاء بعد أن خانوا أصلهم، لعنهم إله الأسود ومنذ ذلك اليوم لصق في أطرافهم الأربعة زوجين من الأحذية النتنة، والآن فإن نتانة أحذيتهم تملأ أنف المدينة ولا يتنظفون بأي شيء، لذا قرروا البحث عن أنظف مخلوق لينظف لهم كبير النتنين، فلم يجدوا سوى الطفل في دائرة بحثهم، على أمل أن تنظف طهارتهم نتانة أحذيتهم وأرجلهم، وكما ترى فإن أطفال هذه المدينة جميعهم صباغو أحذية شمروا عن سواعدهم ينظفون ويلمعون من الصباح إلى المساء تلك الأحذية. لهذا يا دلارام العزيز، اعذرني لأنني أؤجل طفولتك لقرن آخر لأنني لا أريد إخراجك من قلبي إلى لجة جحيم كبار أصحاب الأحذية والأسود الجبانة.

٦

اعذريني دلارام ال...

دلارام العزيزة، كنت أتوارى دائمًا من تلك الظلال التي تلف على نفسها كابوس الخيانة، حتى لا أصبح تحت رحمة ظلالهم الكاذبة.

أنا الآن أناهز الأربعين سنة وسبعة أشهر وثلاثة وعشرين يومًا، بعد تسعة عشر يومًا آخر وفي صباح يوم اثنين خريفي، أترك إقليم الحياة ليودعني القدر إلى المنية، وأنتِ الشخص الوحيد الذي أدين له ويجب عليّ أن أطلب الصفح منه، لأنني قضيت عمري ولم ألحق على مكافأتك، أو على الأقل لا أخونك، كنت أخاف من الخيانة لدرجة أنني جعلتك معينًا ونديمًا لأحلامي وآلامي، أنت من الناس الذين كنت في الحياة أبحث عنهم كثيرًا... أنت بطلة قصتي التي أحبها بكل جوارحي، ولكن مع الآسف... كنت خائنًا لدرجة... ودعت عمري إلى المنية ولم يسعني أن أكتب إليك.

الاثنين، ٢٩ /١/٢٠٠١

أربع ثوانٍ من الحِكَم التي جعلتني غجريًا

بلاد الغربة

متمردة من النجوم الرهينة، في الأزقة التي تباع فيها النور، متمردة من البحر الهائج والغاضب الذي يهدر مياهه ويشبك في الأعماق شباك أسماكهم، يعلمنا الطريقة الصائبة للبيع والأسر.. كل يوم أخرج رسائله وأحفظ جميع كلماته، وأغيب لساعات عن صراخ أطفالي المنكوبين، أتمعن مليًا ذلك الخاتم ذا الفص الأزرق كزرقة البحر الذي يمنح السكينة لعيني... قبل رحيلك وضعناهما في إصبعينا دليلًا على الانتظار، حينها يأتي الليل فأغمض عيني.. وصوت جرس التلفون يصبح ورد وتسبيحات خيالي.. رنين الهاتف يطغى على ليلي بطوله، حينها يحملق النهار ويلملم جميع النجوم، صورتك التي على الحائط أنظفها من الغبار، وأشعل شمعة عيد زواجنا لعمرنا المشترك فأعود إلى تمردي مرة أخرى على... آه نسيت أسلم نفسي للرجل الذي أنتظره منذ زمن ولامس إصبعه الراغب بابي، وأنا أتبعه، وهو الآن هناك يمثل دور البحر ولا يلبس الخاتم الأزرق!

كانون الأول ١٩٩٦

كريسمس

في بلاد بلا بيبان، نادرًا ما يتقاطر المطر عليها، والفرقة أكوامًا.. أكوامًا.. تملأ نواح الانتحارات، كل من يمر فوق أحد ممرات ذلك المكان المنحوس يبتعد من أمامه ومن المستحيل أن يعيد ضياء الممر مكابدات الروح مرة أخرى، وهو يمسك بقلم في الساعة الثانية عشرة مرة واحدة كل عام، يكتب أسطورة تمشيط الشعر، شعرها المحترق، اسمها المصلوب، الحبر المسروق من القلم... و... وفي هذه الليلة جاء بشمعة وقطعها إلى أربع قطع وأشعلها في الجهات الأربع للحائط، ولكن نفخة واحدة أطفأتها جميعًا، وكتب على صفحات جريدة البرامج حياته (الوقت متوقف، هذه المملكة كل سنينها صفر وكل أيامها يوم الاثنين) وكتب بمانشيت أكبر (الذين كرهناهم؛ كان لزامًا علينا أن نحبهم، والذين أحببناهم كان يجب أن نكرههم؛ لأننى أقول كره، لأنني الآن أيضًا تعلمت الكره والحقد، لأنني من جمعية أصدقاء الحقد وذئابستان، وأطر صوري فارغة.. ها ها ها... أقول أطر صوري فارغة! وبأي شيء ستملأ؟ إذا كان حتى أقرب الأقربين إليّ يقول لي إنك غريب، تنطفئ نفسي حين أحس بالغربة.. وبأي شيء ستملأ؟ إذا كان أصحاب الصور يضعون الأقنعة، صور كرستالية ومضامين مزنجرة، أطر الصور فارغة آه.. يا صديقي هل لديك صورة؟

الانتظار

في الجهة المظللة لكوخك المهترئ تخبزين للبيوت يوميًا بقدر قامتك، وترددين دروس الافتراق والانكسار والغربة، الرقابة والأرغفة والتخاصم للعصافير الواقفة على سطحكم المبلل، وبين الطرق الطويلة والبعيدة تخربش مخالب الزمن خطوطًا على ملامح جمالك، وفي كل أوقات السحر قبل شمر السواعد تفتحين صندوق ملابسه وتشمينها مليًا، ونحيب طويل يلوي خوالجك، ودون رغبة منك تلملمين نفسكِ بقدر ظلك، وحين تكونين هناك يسيطر عليك الخوف، إذا رحلتِ فإن نار مدفأتكم تنطفئ، وماذا بشأن ذينك الصغيرين اللذين يشكلان معها أثافي المدفأة، لهذا فإنك دائمة تصيخين السمع لأنباء المذياع، وتقول نشرة اليوم: أخفضوا مراياكم وامسحوا بأيديكم على تجاعيد جبينكم، تلك المرايا التي حفرت في ظهرها خارطة الأنفال ضعوها في الأطر الفارغة لصوركم.

حتى لا تتبع الأطر الروح بعد الآن فصاعدًا.

القناع

لست من النساء الحاسدات ولم يصبني الشك يومًا في قلبي البرونزي، ولكنك الآن تقربني من تلك المعادن التي ألبست على الخفافيش، تريد أن أكون في أيام أقنعة أفعالك العاجزة؛ عمياء، هل نسيت حين كنت تقول:

- يأخذ غروب الشمس في القرية الضوء من سمائنا نحن.

- أنا إنسان متمرد في هذا السفر، ولن أركن إلا في مرفئكِ، أنا وأنا... و... و...

كانت هذه كلمات ماقبل إدخالي القفص، وسكر شهر العسل وإيقاع ماقبل تشغيل آلة إنجابي، والآن تنشرها في لذة مقنعة، وبعد أن تغلق نوافذك تهمس في أذن الحائط: «نحن نتحاور الآن بلغة لا يفهمها الذين يمرون بجانبنا ويصبحون ويمسون علينا».

مثل ذلك المراهق الذي يدخن في التواليت والزوايا المظلمة خوفًا من أن يعلم به كبيره، وأنت أيضًا بالقرب من الأسيجة تمص شفاه تلك العصافير التي حطت في أعشاشها مياه الأصالة، تنسكب دموعك في أحضان المعشوقات الصلعى، لكي أكون على اطلاع دائم بقيادات وفرسان أساطيرك، لا تنسَ أنني تعلمت أن أقرأ كل النظرات الآنية والمستقبلية، بيد أن فلتر سيجارة هي فقط فلتر ولا شيء غيره.

لذا، بإحساس مليء بالكبرياء قطعت كل صفحاتك، ومرة أخرى جمعتها وألصقتها إلى بعضها ودسستها في تلك الحقيبة التي رسمت على ظهرها

صور عرائس طفولتي، لأن الصفحات التي كانت بداخلها كانت أيضًا عرائس، ولكن عرائس الكبار.. ثم حملت جعبتي على كتفي، ونزلت عن طريق نمل حيطان العدم، وأمام زجاجة الصور المتروكة لأمي، رفست الكرسي الصدأ للتاريخ.

ظلال الجحيم

أيها المطر الذي بلا لون وقطرات
أمطر على
مكابدات هذه المنطقة
الشريرة
زمن

منذ زمن، وأنت مختفٍ في ديوان الفكر الضائع، ونفضت الحمامات عن نفسها أردية الصغار، كان يجب أن تنبت اليوم أيضًا هناك حتى تطير الحمامة الواقفة خلف رأسك، ما هذا القدر الذي يتساقط عناقيد.. عناقيد من السطح الواقع أمامي وتقع في حضن ظلال الصباح، شمس الظهيرة وتبختر المساءات الحمر، مرة أو عشر مرات كان طائر نظراتك يطير عاليًا ويدور في عين السماء الزرقاء والغيوم ذات الجدائل السوداء، وبعين قلبك الثاقبة، كنت تدقق في السماء والشمس والغيوم، وتكشف عن جميع آفات الأرض بجناحيك المكسورين وكنت تبكي... تبكي لطفولتك، لطبيعة هذا الخلق الذي لا يحب خيره، كنت تبكي للنساء الملائكيات المنكسرات بأيدٍ آدمية.

رغم أني منذ ثلاث سنوات وأنا أقتات على فصل الخريف لهذه المنطقة، إلا أن رحلاتي الوحيدة، لتسوية الأعشاش، عودتي من قطاف أزهار بكاء المصابات بالخيانة تعرفني بأناس هذه المنطقة... وأنت لكثرة عنادك وهمومك التي جعلت محياك شاحبًا، جعلت نسيم المساءات الضائعة تسقط قشور ملامحك، إلى أن خيم عليك الظلام وشيئًا فشيئًا صيرت إلى نقطة تنطفئ في ضباب المساء.

أشك في رؤيته، المنضدة التي أمامي، الأوراق فوقها، وأمامي هناك منضدة أخرى، زحام الناس، ضجيج الافتراق، وغير هذا كله... آه!... أشك بأنها نجمة... لا إنها عين... عين محمرة كدرة، يبدو أنها ستمطر في الفصول الأربعة وينبع من مصدرها السحر المخيف، وفي سواحل البحار الدموعية، ركنت سفن الأسئلة من أجل الأجوبة، ليست غريبة عني، هذه الأمطار الدموعية، هذه النظرات المسروقة والصمت والمكابدة، حين تطير حمامات قبالة رأسك لتجلب لي هوية معرفتك «لمَ أنت صامت!» ألا تعرف أن في صحراء الصمت هذه تحيطني الجدران مثل الغول، ويبلع ظلي خطواتي فلا ى صل إليك... تقدمي بخطواتك إلى الأمام، فالدموع لا تفيد بعد الآن، والصمت النوتة المنسية للمقابر «لو كانت الدموع هي العملية

النهائية لعلاج المشكلات، فإن النساء كن يصبحن صاحبات أقوى سلاح لقتل مكروبات المشكلات».

فالتف محراب تفكيره، فتركت ولاية البكاء، ومع جثث النسيم اللامبالية صرتُ غبار الطريق، ووقعت على فحم العيون المليئة بالدموع، أطبق حلقه على مصادر الدموع، وشفط بحر عيونه، يتوجس، يرغب أن أقطع مثل البرق قشور كلمات لسانك، وأسكبها في بودقة الدفاع، تشابكت أنفاسك برموشي، وقالت لي إن حياتي تلفظ أنفاسها الأخيرة، والعمر يلم جعبة سفر خريفي، لهذا وقفت في هذا المحراب، كي يجعلوا دموعي شعارات، وهمومي تمثالًا لمزار أصل كل مسلوب الحقوق. انقطعت أنفاسك من رموشي ووقعت تحت الأزهار البرية لأصابعي، فأخرجت بروية صفحة ذابلة من قبضتك، وأصبحت مظلة لأصابعك، وافترقت!؟ ... آه... افترقت... شيء طبيعي في هذا الزمن، الكثير منها تأتي إلى هنا يوميًا، تترك مملكة الشر، وتحمل على أكتافها جعب هموم أقسى، ولكن شخصًا على شاكلتك لن يغرق في محيط الألم، فباب محادثاتك مغلق، وطبق قفل سرابي على لسانك، لا أدري كيف بدأت الحديث لفرط تخوفي:

- أتريد أن أساعدك وأقرب لك الموعد بضعة أيام؟

- بعيد أو قريب فكلاهما لدي سواء.

- عجبًا، الذين يأتون إلى هنا، يريدون أن يتخلصوا يومًا قبل ذلك من كل هذه المشكلات والذهاب والإياب.

- الذين يفترقون بمرضاتهم.

- وأنت؟

- أنا فقط لم أكذب عليه، ولم أخفِ عنه أي أسرار حول الحديث عن أي سلب للحق.

- وما هو هذا السلب؟

- .....

- هذا الصمت اللعين، يروي سراب الصحارى من إناء راحتي، لقد كنت تقطع المسافات مشيًا لكي تصل إلى أي مخلوق يحتضن شكاوى قلبك «لماذا أنت ساكت!؟».

- لا تسكت يجب أن تدافع عن نفسك.

- أنا... اب... ي...

الدموع والسكوت كانا في ضيافة تلك اللحظات، حملت آلام وغبار الممر على ظهرك رفعت رجلك على صدر السلالم، يبدو أن الشتاء الثلجي يقيم مأتمه الضبابي من أجلك، يبدو أن السماء تبكي من أجلك، يبدو أن

سفح قلبي مكان لقاء هذا الإقليم، لذا يوميًا بالقرب من هموم الحمامات التي أخرجت من أعشاشها، أنقش لوحة مسرحية الموت، وأطير وأرحل معها وأحتضن ملحمة الموت المفاجئ.

جعلت روحي همومك مارشًا هادئًا، عند غيابك يستعرضه، وحين وقع صوت الشرطي في غرفة القاضي على كرستال تفكيري، وقطعني عن تذكرك، وعيني امرأة ضعيفة شاحبة، قطع الوسط الحاشد بسرعة وأوصل نفسه أمامي، وبخوف وخجل بدأ بالكلام، أنفاس همسك في ذلك الحين سحبتني إلى حلم مخيف، تجذرت أنفاسك في حلمي بشكل مخيف، ودموعك ترويها، وتوسلاتك مرارة النساء العقيمات أمام المزارات، وأصبح فم وأنف أبيك منتفخين جدًا ويجذ على أسنانه، ويسيل لعابه، وملاعبة مسدسه وسكينة يده كانت مثل مداعبة عشيقة متمرسة، وتحت ضغط احمرار عينيه، شفط أنفاسك وبلع ظلك؛ وأسقط عناقيد أصابعك العشرين، وارتفع دخان ناره الكثيف، لم يسرق فقط ابنتك؛ فسحة الغرفة، عطف وحنان الأبوة، أصيب بكل أنواع الصرع المشؤوم والمشاعر القبيحة، مثل الحيتان العملاقة يبدو كالظلام الدامس، منذ زمن وغرفتك هذه يصيبها شبح الإثم، وعيناك ورود البكاء، والأمل الوحيد لديك هو حنان أمك المنكوبة ودفاعها عنك «إنها ابنتنا الوحيدة ويجب أن نرعاها».

مثل السنونو حجبت الغيوم بفستانك الأبيض، تبادلت خاتم الخطوبة، ولعدة مرات أمطر عليكِ بروية، لم يمسح أثر الجرح على يده؛ هشم إصبعكِ، وصار الخاتم دائرة شك، حين امتزج ساطور خوفٍ مع جسدكِ، فهويت مثل تمثال بلا روح، حتى أصبحتِ شبح الغرفة الجحيمية، وهربتِ من الكوة، حين فزعت من خيالاتي ظننت أنني رأيت حلمًا، حتى انسكب صوت أمك المنكوبة في أذني:

- كانت هذه كل الفاجعة، والآن حفر حفرة في الفناء يريد أن يوئدها فيها، كان فم البيت والممر منفتحًا بوجوم، ولونك مثل أزهار حب الشمس الصفراء تائه خلف شعاع شمس الأمل، أصبحت بالقرب من ثلة جاندرمة إعصارًا ونزل عن طريق الحلوق المفتوحة.

آذار (مارس) ١٩٩٥

متهم ساحل البحر

- هل أنت الذي قتلته؟

- لا أعرف

ربما يكون كذلك، يمكن أن أكون القاتل، أو المقتول... لا أعرف، المهم أنه الآن يوجد خيط يربط القطبين ببعضهما، وأنت حر بينهما في بعض الأشياء الثانوية، وعلى ضفاف هذه الحرية، فإن المحتال هو الرجل الطيب وبعكسه فإنه قاتل ومقتول.

ولكن الذي لا أفهمه هل كان يتلذذ في القتل أو قتله؟

ورغم أن الأمر عندي سيان، إذا كنت قد قتلته بيدي، أو أنني تسببت في قتله، ولو أنني لا أظن أنه قتل، أو لا أريد أن أصدق بذلك...

فضياعه بالنسبة لي أمر قاسٍ جدًا، لأنني كنت أحبه كثيرًا، أكثر مما تصدق، يمكن أن يكون أغلى شيء في حياتي، وكان كذلك فعلًا لأنه الوحيد الذي كان أنيسي في غربتي ووحدتي القاتلة هذه.

- من يصدق أن أقتل أقرب كائن إليّ؟

إلى الآن لا تغيب صورة عينيه المغرورقتين الأسطوريتين من ناظري للحظة واحدة، حين كان يلفظ أنفاسه الأخيرة وينظر إليّ بسكون، ربما قد حسدته، أظنه كذلك فعلًا... كنا ننوي السياحة لمدة يومين على ضفاف البحر، وحين هممنا بالحركة، كانت الساعة تقارب الثانية صباحًا، كانت ظلمة الليل تعيقنا عن رؤية الأشياء بشكل واضح، إلى أن طلع الصباح، فامتلأت قرارة أعيننا بنور الجمال، حين كان الصباح يغمض عينه على النباتات وأحيانًا يبعث بأشعة ذهبية من بين أطرافه، كانت الأوراق تصاب بالإنهاك الشديد وتنحني إليها بعد ذلك ساجدة، وإلى ظهور ذلك القرص؛ كانت ثلوج قمة السفح مقابلنا تتدلل على الليل، إلى أن جعلها بياضه قطرات الحليب مسكوبة، حتى أن النجوم أيضًا آلت إلى الانطفاء ودفعت بالقمر من مكانها، حينها اقترن شعاع الشمس الذهبي بالطبيعة بشكل نهائي، وهناك علمت أن السحر توأم ليلي غدار وبظهوره يتراجع الليل، وهو بهذا الشكل أيضًا خلق لي توأمًا كان يجب أن أتراجع على أثره.

آه... حين استيقظت، كانا يضعان رأسيهما قرب بعضهما، وينظران بشغف أكثر منا إلى الأشعة الذهبية من نافذة السيارة.

لماذا أفكر بهذا القدر في قتله؛ أتراني لا أملك حق قتله؟

من أي شيء أملك هذا الحق؟ من أنني كنت أحبه أكثر من أي شيء آخر، صحيح أنه يقولون إن الحب يقربك من القتل؟

التفكير في كيفية مقتله يمرر تيار موت مخيف في روحي، لا أستطيع تصديق نفسي بأنه ميت.

أخذني دلال ومكر وتمثيل مدام كلودين إلى التفكير في عالمها، ذلك العالم الذي لا يسع فيه شيء آخر غير التسلط والعنجهية..... وقد كانت طريقة مشيتها وغنجها وتأنفها ونظراتها أصابتني بالخبال. الشيء الذي وضع البسمة على شفتي؛ الثياب التي ارتدتها على البحر، كانت ثيابًا تفيد تمامًا لاحتفال شرقي، شارلستون طويل كنزة كتان وثوب من الشيفون الخفيف وطويل لغاية كعب حذائها العالي والمدبب، نفشت شعرها تمامًا. الفتيات اليافعات اللاتي تجمعن حولها بشغف، كن يلمسن شعرها بالتناوب ثم حليها وملامسة نوعية الثياب التي كانت تلبسها، ووضعت حبلًا في رقبة كلبة مشعرة صغيرة تتقدمها، وبعض الأحيان تتمايل بمكر بشيء من الركض الخفيف، إحدى الفتيات التي كانت واقفة حولها قالت: إن أمها تقول إن مدام كلودين من أصول أولئك الهندوس الذين كانوا يعيشون في قرية بعيدة ولا ينجبون أطفالًا، وبعد سنين طويلة بدل طفل أنجبوا حية، ورغم أن أصدقاءهم ومعارفهم نصحوهم بأن يقتلوا الحية وينفذوا بجلدهم، إلا أن الأم لا تقبل وتراعاها بحب وحنان الأمومة، وتبحث العالم كلها إلى أن تزوجها، لهذا فهي الآن تتبختر حتى على الأرض.

هذه المرة تتمشى على ضفاف البحر بدلال وبحبل ملون جميل تجر كلبتها من ورائها، وهي كانت تمتنع وتجر نفسها نحو (طوني) إلى أن ذهبا سوية إلى خلف صخور البحر، وكانت مدام كلودين لا تعلم شيئا بحسدي لها، ولا بكلبتها التي استولت على صديقي...

وكيف تحس بذلك وهي أيضًا أخذت لنفسها شابًا جميلًا كان الوحيد على البحر وبسبب الدخول في عالمهما لم يعلما ما يحصل على بعد شبر واحد منهما...

وأنا من قهري على الطرفين نسيت إحساسي، وحين اقتربت منه رأيت أن صخرة واقعة على رأسه وكلبة المدام تحوم حوله وتنوح له، ورغم أن قلبي انقبض بشدة، إلا أنني لم أرتبك ولم أنقذه، وحين نفق، أخرجوه، ورغم أن شقيقتي قالت إن هذا من عمل مدام كلودين، ولكن قبل أن أتمكن من أن أقول لها كيف؟ اتهمتني مدام كلودين بذلك، قالت:

- أنت لا تعلم ماذا تقول، كان طوني مع كلبتي يلحسان بعضهما، وأنت قفزت على تلك الصخرة وأوقعتها عليهما وكلبتي أنقذها القدر.

- في الحقيقة لا أعلم، ربما يكون كذلك، ولكنني لا أعلم ماذا فعلت... ولكن أعرف شيئًا واحدًا فقط، وهو أنني إلى أن أعيش على ضفاف البحر،

سأحتفظ بحبله ولن أضعه في رقبة أي كلب آخر.

دمشق، ٢١/٦/٢٠٠١

عن الكاتبة

المؤلفات المطبوعة للكاتبة:

١- خطيبي الطيني، مجموعة قصصية - باللغة الكوردية، دار ئاراس للطباعة والنشر ٢٠١٢

٢- الرسائل التي لم تقرأ قبل الموت، مجموعة قصصية- باللغة الكوردية، دار ئاراس للطباعة والنشر ٢٠٠٤

٣- الحِكَم التي جعلتني غجريًا، مجموعة قصصية - باللغة الكوردية، مؤسسة زاموا ط١، ونشرت مجلة نفار ط٢، عام ١٩٩٨

٤- علم المرأة والمجتمع الكوردي، دراسة باللغة الكوردية، دار ئاراس للطباعة والنشر ٢٠٠٥

٥- المرأة الكوردية على أعتاب الألفية الثالثة وعصر العولمة، مجموعة مقالات، مؤسسة سة ردة م للنشر ٢٠٠٢

٦- صديقان ومشعوذ واحد، قصص للأطفال - باللغة الكوردية، دار ئاراس للطباعة والنشر ٢٠٠٣

٧- هاوناز والدعسوقة، قصص للأطفال، نشرتها مؤسسة ئيم. أي. جي باللغتين الإنكليزية والكوردية (اللهجتان السورانية والبادينانية) في مدارس كوردستان عام ١٩٩٩

٨- الروض، رواية، ترجمة، من تاليف «ماركريت دورا» من منشورات مجلة نفارة ٢٠٠٠

٩- مشروع لكسر الصمت حول قضية الأنفال، آراء واستنتاجات الكاتبة حول القتل الجماعي للكورد «الأنفال» أجريت هذه المقابلة من قبل الصحافي طه سليمان وقامت صحيفة (ريكاي كوردستان - طريق كوردستان) بطبع هذا الكتاب عام ٢٠٠٨

١٠- مشاركة الكاتبة في كتاب «حوار حول مائدة الدم» عبارة عن مجموعة حوارات لعدد من الكتّاب بخصوص قضية الأنفال وجينوسايد الكورد، أجراه: حمة كاكة رة ش، من منشورات صحيفة هاولاتي عام ٢٠٠٧

التجارب الصحافية للكاتبة:

١- أصدرت مجلة «نفار» عام ١٩٩٨، كانت مجلة فكرية وتنظيرية، واجهت هذه المجلة مشكلتين: الأولى قانونية، لأنها أول امرأة تصدر مجلة في كوردستان، ولم يكن لدى وزارة الثقافة حينها قانون يمنح لامرأة حق الامتياز، لهذا اضطرت أن تجعل رجلًا صاحب امتياز للمجلة. المشكلة

الثانية: المتعصبون الذين لم يستطيعوا تقبل المواجهات الفكرية والحوارية... لذا أغلقت هذه المجلة عام ٢٠٠٠ تحت وطأة هذه الضغوطات.

٢- أصدرت مجلة «نويكار» عام ٢٠٠٠ وعملت فيها كصاحبة امتياز ورئيسة تحرير، وكانت مجلة فكرية، تنظيرية وتحليلية، تهتم بقضايا المجتمع المدني والعولمة، استمرت في الصدور حتى عام ٢٠٠١ حيث غادرت الكاتبة كوردستان.

٣- عملت كمديرة تحرير لصحيفة «ئة مرو- اليوم» عام ٢٠٠٧

٤- في عام ٢٠٠١ كانت أول امرأة كوردية تدعى للسفر إلى مصر للمشاركات الثقافية.

الجوائز التي حازت الكاتبة عليها:

١- الجائزة الأولى لمهرجان «آميتا» للأدب والفن عام ٢٠٠١

٢- الجائزة الأولى لمهرجان «آميتا» للأدب والفن عام ٢٠٠٢

٣- جائزة الحزب الاشتراكي الكوردستاني ل «الصحافيين النشطاء» عام ٢٠٠٣.

الشهادات التي حصلت عليها:

١- بكالوريوس في كميونيكيشن، جامعة يورك - كندا.

٢- دبلوم عالٍ في الصحافة، كلية شردن - كندا.

٣- شهادة عليا في ضغوطات ومعوقات اللاجئين والمهاجرين، جامعة يورك - كندا.

وحاليًا تدرس لنيل الشهادة العليا، وتعيش في كندا، وهي في الأصل من جنوب كوردستان.